المجلس الرابع:
في ذكر العشر الأواخر من رمضان

في (الصحيحين)عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله إذا دخل العشر شدّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر) وفي رواية لمسلم عنها قالت: (كان رسول الله يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيره) كان النبي يخصّ العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر فمنها:إحياء الليل: فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله، وقد روي من حديث عائشة من وجه فيه ضعف بلفظ: (وأحيا الليل كله) وفي المسند من وجه آخر عنها قالت: (كان النبي يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كان العشر ـ يعني الأخير ـ شمر وشد المئزر). وخرج الحافظ أبو نعيم بإسناد فيه ضعف عن أنس قال: (كان النبي إذا شهد رمضان قام ونام، فإذا كان أربعا وعشرين لم يذق غمضا) ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه.

وقد روي عن بعض المتقدمين من بني هاشم، ظنه الراوي أبا جعفر بن علي أنه فسر ذلك بإحياء نصف الليل، وقال: (من أحيا نصف الليل فقد أحيا الليل). وقد سبق مثل هذا في قول عائشة رضي الله عنها: (كان النبي يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلا) ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: (ما أعلمه قام ليلة حتى الصباح، وذكر بعض الشافعية في إحياء ليلتي العيدين أنه تحصل فضيلة الإحياء بمعظم الليل، قال: وقيل: تحصل بساعة. وقد نقل الشافعي في الأم عن جماعة من خيار أهل المدينة ما يؤيده، ونقل بعض أصحابهم عن ابن عباس أن إحياءها يحصل بأن يصلي العشاء في جماعة. ويعزم على أن يصلي الصبح في جماعة. وقال مالك في الموطأ: بلغني أن ابن المسيب قال: من شهد ليلة

القدر- يعني في جماعة - فقد أخذ بحظه منها، وكذا قال الشافعي في القديم: من شهد العشاء والصبح ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها. وقد روي هذا من حديث أبي هريرة مرفوعا: (من صلى العشاء الآخرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر) خرجه أبو الشيخ الأصبهاني ومن طريقه أبو موسى المديني. وذكر أنه روي من وجه آخر عن أبي هريرة نحوه، ويروى من حديث علي بن أبي طالب مرفوعا لكن إسناده ضعيف جدا، ويروى من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلا: (أن النبي قال: (من أتى عليه رمضان صحيحا مسلما صام نهاره، وصلى وردا من ليله، وغض بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ على صلاته في الجماعة، وبكر إلى جمعة فقد صام الشهر، واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب عز وجل) قال أبوجعفر: جائزة لا تشبه جوائز الأمراء خرجه ابن أبي الدنيا.

ولو نذر قيام ليلة القدر لزمه أن يقوم من ليالي شهر رمضان ما يتيقن به قيامها، فمن قال من العلماء: إنها في جميع الشهر. يقول: يلزمه قيام جميع ليالي الشهر. ومن قال: هي في النصف الآخر من الشهر، قال: يلزمه قيام ليالي النصف الأخير منه، ومن قال: هي في العشر الأواخر من الشهر، قال: يلزمه قيام ليالي العشر كلها وهو قول أصحابنا، وإن كان نذره كذلك، وقد مضى بعض ليالي العشر. فإن قلنا: إنها لا تنتقل في العشر أجزأه في نذره أن يقوم ما بقي من ليالي العشر، ويقوم من عام قابل من أول العشر إلى وقت نذره، وإن قلنا إنها تنتقل في العشر لم يخرج من نذره بدون قيام ليالي العشر كلها بعد عام نذره، ولو نذر قيام ليلة غير معينة لزمه قيام ليلة تامة، فإن قام نصف ليلة ثم نام أجزأه أن يقوم من ليلة أخرى نصفها. قاله الأوزعي نقله عنه الوليد بن مسلم في كتاب (النذور) وهو شبيه بقول من قال من أصحابنا وغيرهم: أن الكفارة تجزيء فيها أن يعتق

نصفي رقبتين.

ومنها: أن النبي كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي، وفي حديث أبي ذر أن النبي لما قام بهم ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين ذكر أنه دعا أهله ونساءه ليلة سبع وعشرين خاصة. وهذا يدل على أنه يتأكد إيقاظهم في أكد الأوتار التي ترجى فيها ليلة القدر.

وخرج الطبراني من حديث علي: (أن النبي كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان وكل صغير وكبير يطيق الصلاة) قال سفيان الثوري: أحب إلي إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل، ويجتهد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك. وقد صح عن النبي (أنه كان يطرق فاطمة وعليا ليلا، فيقول لهما: ألا تقومان فتصليان، وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر) وورد الترغيب في إيقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة، ونضح الماء في وجهه.

وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة الصلاة ويتلو هذه الآية: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) الآية. كانت امرأة حبيب أبي محمد تقول له بالليل: قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد، وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا.

يا نائم الليل كم ... قم يا حبيبي قد
وخذ من الليل ... وِردًا إذا ما هجع
من نام حتى ... لم يبلغ المنزل
قل لذوي الألباب ... قنطرة العرض

ومنها: أن النبي كان يشد المئزر. واختلفوا في تفسيره فمنهم من قال: هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة، كما يقال فلان يشد وسطه ويسعى في كذا وهذا فيه نظر فإنها قالت: جد وشد المئزر فعطفت شد المئزر على جده،

والصحيح: أن المراد: اعتزاله النساء، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون، منهم: سفيان الثوري. وقد ورد ذلك صريحا من حديث عائشة وأنس، وورد تفسيره بأنه لم يأو إلى فراشه حتى ينسلخ رمضان، وفي حديث أنس (وطوى فراشه واعتزل النساء) وقد كان النبي غالبا يعتكف العشر الأواخر.

والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنص والإجماع، وقد قالت طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى: (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) إنه طلب ليلة القدر. والمعنى في ذلك: أن الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر، لئلا يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح فيفوتهم طلب ليلة القدر، فأمر مع ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجد من الليل، خصوصا في الليالي المرجو فيها ليلة القدر، فمن ههنا كان النبي يصيب من أهله في العشرين من رمضان ثم يعتزل نساءه، ويتفرغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر.

ومنها: تأخيره للفطور إلى السحر، وروي عنه من حديث عائشة وأنس: (أنه كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحورا). ولفظ حديث عائشة: (كان رسول الله إذا كان رمضان قام ونام، فإذا دخل العشر شدّ المئزر واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين وجعل العشاء سحورا) أخرجه ابن أبي عاصم وإسناده مقارب. وحديث أنس خرجه الطبراني ولفظه: (كان رسول الله إذا دخل العشر الأواخر من رمضان طوى فراشه واعتزل النساء وجعل عشاءه سحورا) وفي إسناده حفص بن واقد قال ابن عدي: هذا الحديث من أنكر ما رأيت له، وروي أيضا نحوه من حديث جابر خرجه أبوبكر الخطيب وفي إسناده من لا يعرف حاله.

وفي الصحيحين ما يشهد لهذه الروايات ففيهما عن أبي هريرة قال: (نهى رسول الله عن

الوصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله ؟ فقال: وأيكم مثلي! إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، فلما أبوا أن ينتهو عن الوصال واصل بهم يوما، ثم يوما، ثم رأوا الهلال فقال: (لو تأخر لزدتكم) كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا. فهذا يدل على أنه واصل بالناس في آخر الشهر. وروى عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة قال: (ما واصل النبي وصالكم قط، غير أنه قد أخّر الفطر إلى السحور) وإسناده لا بأس به.

وخرج الإمام أحمد من حديث علي (أن النبي كان يواصل إلى السحر) وخرجه الطبراني من حديث جابر أيضا، وخرج ابن جرير الطبري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أن النبي كان يواصل إلى السحر، ففعل ذلك بعض أصحابه فنهاه، فقال: أنت تفعل ذلك ؟ فقال: إنكم لستم مثلي، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني) وزعم ابن جرير أن النبي لم يكن يواصل في صيامه إلا إلى السحر خاصة، وإن ذلك يجوز لمن قوي عليه، ويكره لغيره، وأنكر أن يكون استدامة الصيام في الليل كله طاعة عند أحد من العلماء وقال: إنما كان يمسك بعضهم لمعنى آخر غير الصيام، إما ليكون أنشط له على العبادة، أو إيثارا بطعامه على نفسه، أو لخوف مقلق منعه طعامه، أو نحو ذلك. فمقتضى كلامه: أن من واصل ولم يفطر ليكون أنشط له على العبادة من غيره أن يعتقد أن إمساك الليل قربة أنه جائز وإن أمسك تعبدا بالمواصلة. فإن كان إلى السحر وقوي عليه لم يكره وإلا كره. ولذلك قال أحمد وإسحاق: لا يكره الوصال إلى السحر.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي قال: (لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر. قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال: إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني). وظاهر هذا يدل على أنه كان يواصل الليل كله، وقد يكون إنما فعل ذلك

لأنه رآه أنشط له على الاجتهاد في ليالي العشر، ولم يكن ذلك مضعفا له عن العمل، فإن الله كان يطعمه ويسقيه.

واختلف في معنى إطعامه، فقيل: إنه كان يؤتى بطعام من الجنة يأكله، وفي هذا نظر. فإنه لوكان كذلك لم يكن مواصلا، وقد أقرهم على قولهم له إنك تواصل، لكن روى عبد الرزاق في كتابه عن ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار (أن النبي نهى عن الوصال قالوا: فإنك تواصل ؟ قال: وما يدريكم لعل ربي يطعمني ويسقيني) وهذا مرسل، وفي رواية لمسلم من حديث أنس: (إني أظل يطعمني ربي ويسقيني). وإنما يقال: ظل يفعل كذا إذا كان نهارا ولوكان أكلا حقيقيا لكان منافيا للصيام.

والصحيح: أنه إشارة إلى ما كان الله يفتحه عليه في صيامه وخلوته بربه لمناجاته وذكره من مواد أنسه، ونفحات قدسه، فكان يرد بذلك على قلبه من المعارف الإلهية، والمنح الربانية ما يغذيه ويغنيه عن الطعام والشراب كما قيل:

لها أحاديث من ... عن الطعام
لها بوجهك نور ... وقت المسير في
إذا شكت من كلال ... روح القدوم فتحيا

الذكر قوت قلوب العارفين يغنيهم عن الطعام والشراب، كما قيل:

أنت ربي إذا ... وقوتي إذا أردت

لما جاع المجتهدون شبعوا من طعام المناجاة، فأفٍّ لمن باع لذة المناجاة بفضل لقمة.

يا من لحشا المحب ... ذا سر سراك في
هذا المولى إلى ... لا كان عيشا أورث

ويتأكد تأخير الفطر في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر، قال ذر بن حبيش: في ليلة سبع وعشرين من استطاع منكم أن يؤخر فطره فليفعل، وليفطر على ضياح لبن. ورواه بعضهم عن أبيّ بن كعب مرفوعا ولا يصح. وضياح اللبن:

وروي: ضيح ـ الضاد المعجمة والياء آخر الحروف ـ هو اللبن الخاثر الممزوج بالماء، وروى أبوالشيخ الأصبهاني بإسناده عن علي قال: إن وافق ليلة القدر وهو يأكل أورثه داء لا يفارقه حتى يموت. وخرجه من طريقه أبوموسى المديني، وكأنه يريد إذا وافق دخولها أكله والله أعلم.

ومنها: اغتساله بين العشاءين: وقد تقدم من حديث عائشة واغتسل بين الأذانين، والمراد أذان المغرب والعشاء. وروي من حديث علي أن النبي كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعني من العشر الأواخر) وفي إسناده ضعف. وروي (عن حذيفة أنه قام مع النبي ليلة من رمضان فاغتسل النبي وستره حذيفة وبقيت فضلة فاغتسل بها حذيفة وستره النبي) خرجه ابن أبي عاصم. وفي رواية أخرى عن حذيفة قال: (نام النبي ذات ليلة من رمضان في حجرة من جريد النخل فصبّ عليه دلو من ماء). وقال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر، وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة، ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، فأمر ذر بن حبيش بالاغتسال ليلة سبع وعشرين من رمضان. وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل وتطيّب ولبس حلة إزار أو رداء، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسهما إلى مثلها من قابل، وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين، ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر، ويقول: ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة أهل المدينة، والتي تليها ليلتنا يعني البصريين. وقال حماد بن سلمة: كان ثابت البناني وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيّبان، ويطيبون المسجد بالنضوح والدخنة في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر، وقال ثابت: كان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم، وكان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر.

فتبين بهذا أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن، كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات، كما قال تعالى: (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال ابن عمر: الله أحق أن يتزين له. وروي عنه مرفوعا: (ولا يكمل التزين الظاهر إلا بتزين الباطن) بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها، فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئا، قال الله تعالى: (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير).

إذا المرء لم يلبس ... تقلب عريانا وإن

لا يصلح لمناجاة الملك في الخلوات إلا من زين ظاهره وباطنه، وطهرهما خصوصا لملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى، وهو لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليزين له ظاهره باللباس، وباطنه بلباس التقوى، أنشد الشبلي:

قالوا غدا العيد ... فقلت خلعة ساق

فقر وصبرهما ... قلب يرى ألفه

أحرى الملابس أن ... يوم التزاور

الدهر لي مأتم إن ... والعيد ما كنت لي

ومنها: الاعتكاف: ففي (الصحيحين)عن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين) وإنما كان يعتكف النبي في هذا العشر التي يطلب فيها ليلة القدر قطعا لأشغاله، وتفريغا لياليه، وتخليا لمناجاة ربه وذكره ودعائه. وكان يحتجر حصيرا يتخلى فيها عن الناس فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم، ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن

المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى، ولا لتعلم علم، وإقراء قرآن، بل الأفضل له الإنفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية، وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات، فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها.

سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجمعة والجماعة قال: هو في النار. فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هي الإعتكاف في المساجد، خصوصا في شهر رمضان خصوصا في العشر الأواخر منه، كما كان النبي ﷺ يفعله ، فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله وما يرضيه عنه، كما كان داود الطائي يقول في ليله: همك عطل على الهموم وحالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات وحال بيني وبين الشهوات.

مالي شغل سواه ما يصرف عني
ما أصنع أجفان مني بدل ومنه

فمعنى الإعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق للإتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الإنقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال، كان بعضهم لا يزال منفردا في بيته خاليا بربه فقيل له: أما تستوحش ؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

أوحشتني خلواتي بك من كل أنيسي
وتفردت فعاينـ تك بالغيب جليسي

يا ليلة القدر للعابدين اشهدي، يا أقدم القانتين اركعي لربك واسجدي، يا ألسنة السائلين جدي في المسألة واجتهدي.

يا رجال الليل رب داع لا يرد
ما يقوم الليل إلا من له عزم وجد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الحظوة بأنس مولاهم وقربه، وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر، كان ببغداد موضعان يقال لأحدهما: دار الملك، والأخرى: القطيعة فجاز، بعض العارفين بملاح في سفينة، فقال له: احملني معك إلى دار الملك، فقال له الملاح: ما أقصد إلا القطيعة، فصاح العارف: لا بالله لا بالله منها أفر:

وليلة بت بأكفانها تعدل عندي ليلة
كانت سلاما بالوصل حتى

يا من ضاع عمره لا شيء استدرك ما فاتك في ليلة القدر فإنها تحسب بالعمر.

وليلة وصل بات سميري فيها بعد
شفيت بها قلبا زمانا فكانت ليلة

قال الله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر) واختلف في ليلة القدر والحكمة في نزول الملائكة في هذه الليلة: إن الملوك والسادات لا يحبون أن يدخل دارهم أحد حتى يزينون دارهم بالفرش والبسط، ويزينوا عبيدهم بالثياب والأسلحة، فإذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض، لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات بالصوم والصلاة في ليالي رمضان، ومساجدهم بالقناديل والمصابيح، فيقول الرب تعالى: أنتم طعنتم في بني آدم وقلتم: (أتجعل فيها من يفسد فيها) الآية. فقلت لكم: (إني أعلم ما لا تعلمون) اذهبوا إليهم في هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أني اخترتهم على علم على العالمين قال مالك: بلغني: (أن رسول الله أرى أعمار الناس قبله أوما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر) وروي عن مجاهد: أن النبي ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك

فأنزل الله هذه السورة (ليلة القدر خير من ألف شهر) الذي لبس فيها ذلك الرجل في سبيل الله ألف شهر وقال النخعي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر وفي (الصحيحين)عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) وفي المسند (عن عبادة بن الصامت عن النبي قال: من قامها ابتغاءها ثم وقعت له غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر).

وفي المسند والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال في شهر رمضان: (فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم) قال جويبر: قلت للضحاك: أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم في ليلة القدر نصيب ؟ قال: نعم كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر.

إخواني المعول على القبول لا على الاجتهاد، والاعتبار ببر القلوب لا بعمل الأبدان، رب قائم حظه من قيامه السهر، كم من قائم محروم، ومن نائم مرحوم نام وقلبه ذاكر، وهذا قام وقلبه فاجر.

إن المقادير إذا ألحقت النائم

لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات، والاجتهاد في الأعمال الصالحات، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. قال تعالى: (فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى) فالمبادرة إلى اغتنام العمل فيما بقي من الشهر فعسى أن يستدرك به ما فات من ضياع العمر.

تولى العمر في وفي لهو وفي

فيا ضيعة ما أنفقت في الأيام من عمري

ومالي في الذي ضيعت من عمري من عذر

فما أغفلنا من وا جبات الحمد

أما قد خصنا الله بشهر أيما شهر

بشهر أنزل فيه أشرف الذكر

وهل يشبه شهر وفيه ليلة القدر

فكم من خبر صح بما فيها من الخير

روينا عن ثقات أنها تطلب في الوتر

فطوبى لامرىء يطلبها في هذه العشر

ففيها تنزل الأملاك بالأنوار والبر

وقد قال: سلام هي حتى مطلع الفجر

ألا فادخرها إنها من أنفس الذخر

فكم من معلق فيها من النار ولا يدري

المجلس الخامس:

في ذكر السبع الأواخر من رمضان

في (الصحيحين)عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالا من أصحاب النبي أُرُوا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول الله : (أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر)

وفي صحيح مسلم عنه عن النبي قال: (التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبنّ على السبع البواقي) قد ذكرنا فيما تقدم أن النبي كان يجتهد في شهر رمضان على طلب ليلة القدر، وأنه اعتكف مرة العشر الأوائل منه ثم طلبها فاعتكف بعد ذلك العشر الأوسط في طلبها، وإن ذلك تكرر منه غير مرة ثم استقر أمره على اعتكاف العشر الأواخر في طلبها، وأمر بطلبها فيه. ففي (الصحيحين)عن عائشة رضي الله عنها أن النبي قال: (تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان) وفي رواية للبخاري: (في الوتر من العشر الأواخر من رمضان).

وله من حديث ابن عباس عن النبي قال:

(التمسوها في العشر الأواخر الغوابر من رمضان) ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي قال: (التمسوها في العشر الغوابر).

والأحاديث في المعنى كثيرة وكان يأمر بالتماسها في أوتار العشر الأواخر، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي قال: (التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى) وفي رواية له: (هي في العشر في سبع تمضين أو سبع يبقين) وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي من حديث أبي بكرة قال: ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله إلا في العشر الأواخر، فإني سمعته يقول: (التمسوها في تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث يبقين أو آخر ليلة) وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة فإذا دخل العشر اجتهد، ثم بعد ذلك أمر بطلبها في السبع الأواخر. وفي المسند وكتاب النسائي عن أبي ذر قال: (كنت أسأل الناس عنها يعني ليلة القدر فقلت: يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر ؟ أفي رمضان هي أوفي غيره ؟ قال: بلى! هي في رمضان. قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال: بل هي إلى يوم القيامة. قلت في أي رمضان هي ؟ قال: التمسوها في العشر الأول والعشر الأواخر. قلت: فبأي العشرين هي ؟ قال: في العشر الأواخر لا تسألني عن شيء بعدها ثم حدث رسول الله ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت بحقي لما أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضبا لم يغضب مثله منذ صحبته ؟ وقال: التمسوها في السبع الأواخر لا تسألني عن شيء بعدها) وخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم، وفي رواية لهما: أنه قال: (ألم أنهك أن تسألني عنها إن الله لو أذن لي أن أخبركم بها لأخبرتكم لا آمن أن تكون في السبع الأواخر).

ففي هذه الرواية أن بيان النبي لليلة القدر انتهى إلى أنها في السبع الأواخر ولم يزد على ذلك شيئا، وهذا مما يستدل به من رجح ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين على ليلة إحدى وعشرين، فإن ليلة إحدى وعشرين ليست من السبع الأواخر بلا تردد. وقد روى عن النبي من وجوه أخر: (أنه بين أنها ليلة سبع وعشرين) كما سيأتي إن شاء الله تعالى. واختلف في أول السبع الأواخر، فمنهم من قال أول السبع ليلة ثلاث وعشرين على حساب نقصان الشهر دون تمامه لأنها المتيقن. وروى هذا ابن عباس وسيأتي كلامه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي صحيح البخاري عن بلال قال: إنها أول السبع من العشر الأواخر. وخرجه ابن أبي شيبة وعنده قال: (ليلة ثلاث وعشرين وهذا قول مالك قال: أرى والله أعلم أن التاسعة ليلة إحدى وعشرين والسابعة ليلة ثلاث وعشرين والخامسة ليلة خمس وعشرين وتأوله عبد الملك بن حبيب على أنه إنما يحسب كذلك إذا كان الشهر ناقصا وليس هذا بشيء. فإنه أمر بالاجتهاد في هذه الليالي على هذا الحساب، وهذا لا يمكن أن يكون مراعى بنقصان الشهر في آخره.

وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيبا، وليلة أربع وعشرين ويقول: ليلة ثلاث وعشرين ليلة أهل المدينة وليلة أربع وعشرين ليلتنا يعني أهل البصرة، وكذلك كان ثابت وحميد يفعلان وكانت طائفة تجتهد ليلة أربع وعشرين. روي عن أنس والحسن وروي عنه قال: رقبت الشمس عشرين سنة ليلة أربع وعشرين فكانت تطلع لا شعاع لها. وروي عن ابن عباس ذكره البخاري عنه وقيل: إن المحفوظ عنه أنها ليلة ثلاث وعشرين كما سبق. وقد تقدم حديث إنزال القرآن في ليلة أربع وعشرين، وكذلك أبوسعيد الخدري وأبوذر حسبا الشهر تاما فيكون عندهما أول السبع الأواخر ليلة أربع وعشرين.

وممن اختار هذا القول ابن عبد البر، واستدل بأن الأصل تمام الشهر ولهذا أمر النبي بإكماله إذا غم مع احتمال نقصانه، وكذلك رجحه بعض أصحابنا، وقد تقدم من حديث أنس رضي الله عنه: (أن النبي كان إذا كان ليلة أربع وعشرين لم يذق غمضا) وإسناده ضعيف، وقد روي عن النبي ما يدل على أن أول السبع البواقي ليلة ثلاث وعشرين. ففي مسند الإمام أحمد عن جابر أن عبد الله بن أنيس سأل رسول الله عن ليلة القدر وقد خلت اثنان وعشرون ليلة؟ فقال رسول الله : (التمسوها في السبع الأواخر التي بقين من الشهر) وفيه أيضا :عن عبد الله بن أنيس أنهم سألوا النبي عن ليلة القدر؟ وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين فقال: (التمسوها هذه الليلة). فقال رجل من القوم: (فهي إذن يا رسول الله أولى ثمان فقال رسول الله: (إنها ليست بأولى ثمان ولكنها أولى سبع أن الشهر لا يتم) وفيه أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: (كم مضى من الشهر ؟ قلنا: مضت ثنتان وعشرون، وبقي ثمان. فقال رسول الله : (لا بل مضت ثنتان وعشرون وبقي سبع اطلبوها الليلة) وقد يحمل هذا على شهر خاص اطلع النبي على نقصانه وهو بعيد. ويدل على خلافه أنه روي في تمام حديث أبي هريرة رضي الله عنه ثم قال رسول الله : (الشهر هكذا وهكذا وهكذا، ثم خنس إبهامه في الثالثة) فهذا يدل على أنه تشريع عام، وإنه حسب الشهر على تقدير نقصانه أبدا، لأنه المتيقن كما ذهب إليه أيوب ومالك وغيرهما، وعلى قولهما تكون ليلة سابعة تبقى ليلة ثلاث وعشرين وليلة خامسة تبقى ليلة خمس وعشرين وليلة تاسعة تبقى ليلة إحدى وعشرين، وقد روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه أنكر أن تحسب ليلة القدر بما مضى من الشهر. وأخبر أن الصحابة يحسبونها بما بقي منه،

وهذا الاحتمال إنما يكون في مثل قول النبي ﷺ: (التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة) وقد خرجه البخاري من حديث عبادة رضي الله عنه ومسلم من حديث أبي سعيد فإنه يحتمل أن يراد به التاسعة والسابعة والخامسة بما يبقى وبما يمضي، فأما حديث ابن عباس وأبي بكرة وما في معناهما، فإنها مقيدة بالباقي من الشهر، فلا يحتمل أن يراد به الماضي، وحينئذ يتوجه الاختلاف السابق في أنه هل يحسب على تقدير تمام الشهر أو نقصانه. وحديث ابن عباس قد روي بالشك فيما مضى أو يبقى. وقد خرجه البخاري بالوجهين. وحديث أبي ذر في قيام النبي ﷺ بهم أفراد العشر الأواخر قد خرجه أبوداود الطيالسي بلفظ صريح: (أنه قام بهم أشاع العشر الأواخر، وحسبها أوتارا بالنسبة إلى ما يبقى من الشهر، وقدره تاما وجعل الليلة التي قامها حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح ليلة ثمان وعشرين، وهي الثالثة مما يبقى، وقد قيل: إن ذلك من تصرف بعض الرواة بما فهمه من المعنى، والله أعلم. وعلى قياس من حسب الليالي الباقية من الشهر على تقدير نقصان الشهر، فينبغي أن يكون عنده أول العشر الأواخر ليلة العشرين لاحتمال أن يكون الشهر ناقصا، فلا يتحقق كونها عشر ليال بدون إدخال ليلة العشرين فيها، وقد يقال: بل العشر الأواخر عبارة عما بعد انقضاء العشرين الماضية من الشهر، وسواء كانت تامة أو ناقصة فهي المعبر عنها بالعشر الأواخر، وقيامها هم قيام العشر الأواخر. وهذا كما يقال: صام عشر ذي الحجة، وإنما صام منه تسعة أيام، ولهذا كان ابن سيرين يكره أن يقال: صام عشر ذي الحجة، وقال: إنما يقال: صام التسع. ومن لم يكره، وهم الجمهور فقد يقولون: الصيام المضاف إلى العشر هو صيام ما يمكن منه، وهو ما عدا يوم النحر، ويطلق على ذلك العشر لأنه أكثر العشر والله أعلم.

وقد اختلف الناس في ليلة القدر كثيرا، فحكى عن بعضهم أنها رفعت، وحديث أبي ذر يرد ذلك.

وروي عن محمد بن الحنفية أنها في كل سبع سنين مرة. وفي إسناده ضعف وعن بعضهم أنها في كل السنة، حكي عن ابن مسعود وطائفة من الكوفيين، وروي عن أبي حنيفة. وقال الجمهور: هي في رمضان كل سنة، ثم منهم من قال: هي في الشهر كله. وحكي عن بعض المتقدمين: أنها أول ليلة منه. وقالت طائفة: هي في النصف الثاني منه. وقد حكي عن أبي يوسف ومحمد وقد تقدم قول من قال: إنها ليلة بدر على اختلافهم هل هي ليلة سبع عشرة أو تسع عشرة؟.

وقال الجمهور: هي منحصرة في العشر الأواخر، واختلفوا في أي ليالي العشر أرجى، فحكي عن الحسن ومالك أنها تطلب في جميع ليال العشر أشفاعه وأوتاره. ورجحه بعض أصحابنا وقال: لأن قول النبي ﷺ: (التمسوها في تاسعة تبقى أو سابعة تبقى أو خامسة تبقى) إن حملناه على تقدير كمال الشهر كانت أشفاعا، وإن حملناه على ما بقي منه حقيقة كان الأمر موقوفا على كمال الشهر، فلا يعلم قبله، فإن كان تاما كانت الليالي المأمور بطلبها أشفاعا، وإن كان ناقصا كانت أوتارا، فيوجب ذلك الاجتهاد في القيام في كلا الليلتين الشفع منها والوتر. وقال الأكثرون: بل بعض لياليه أرجى من بعض وقالوا: الأوتار أرجى في الجملة، ثم اختلفوا أي الأوتار أرجى؟ فمنهم من قال: ليلة إحدى وعشرين وهو المشهور عن الشافعي لحديث أبي سعيد الخدري وقد ذكرناه فيما سبق. وحكي عنه أنها تطلب ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين. قال في القديم: كأني رأيت والله أعلم أقوى الأحاديث فيه ليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين، وهي التي مات فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد جاء في ليلة سبع عشرة وليلة أربع وعشرين وليلة سبع وعشرين انتهى.

وقد روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما: أنها تطلب ليلة إحدى وعشرين وثلاث

وعشرين، وحكى للشافعي قول آخر: أرجاها ليلة ثلاث وعشرين، وهذا قول أهل المدينة. وحكاه سفيان الثوري عن أهل مكة والمدينة، وممن روي عنه أنه كان يوقظ أهله فيها ابن عباس وعائشة، وهو قول مكحول، وروى رشدين بن سعد عن زهرة بن معبد قال: أصابني احتلام في أرض العدو وأنا في البحر ليلة ثلاث وعشرين في رمضان، فذهبت لأغتسل فسقطت في الماء، فإذا الماء عذب فناديت أصحابي أعلمهم أني في ماء عذب. قال ابن عبد البر: هذه الليلة تعرف بليلة الجهني بالمدينة، يعني عبد الله بن أنيس وقد روي عنه أن النبي أمره بقيامها.

وفي صحيح مسلم عنه أن النبي قال في ليلة القدر: (أريت أني أسجد صبيحتها في ماء وطين) فانصرف النبي من صلاة الصبح يوم ثلاث وعشرين وعلى جبهته أثر الماء والطين. وقال سعيد بن المسيب: كان النبي في نفر من أصحابه فقال: (ألا أخبركم بليلة القدر ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فسكت ساعة ثم قال: لقد قلت لكم ما قلت آنفا وأنا أعلمها ثم أنسيتها، أرأيتم يوما كنا بموضع كذا وكذا ـ أي ليلة هي في غزوة غزاها ـ فقالوا: سرنا فقفلنا حتى استقام ملأ القوم على أنها ليلة ثلاث وعشرين) خرجه عبد الرزاق في كتابه.

ورجحت طائفة ليلة أربع وعشرين وهم: الحسن وأهل البصرة، وقد روي عن أنس وكان حميد وأيوب وثابت يحتاطون فيجمعون بين الليلتين أعني ليلة ثلاث وأربع. ورجحت طائفة ليلة سبع وعشرين وحكاه الثوري عن أهل الكوفة، وقال نحن نقول: هي ليلة سبع وعشرين لما جاءنا عن أبيّ بن كعب. وممن قال بهذا أبي بن كعب وكان يحلف عليه ولا يستثني وزر بن حبيش، وعبده بن أبي لبابة. وروي عن قنان بن عبد الله النهمي قال: سألت زرا عن ليلة القدر ؟ فقال: كان عمر وحذيفة

وأناس من أصحاب النبي لا يشكون أنها ليلة سبع وعشرين. خرجه ابن أبي شيبة. وهو قول أحمد وإسحاق. وذهب أبوقلابة وطائفة إلى أنها تنتقل في ليالي العشر. وروي عنه أنها تنتقل في أوتاره خاصة. وممن قال بانتقالها في ليال العشر: المزني وابن خزيمة وحكاه ابن عبد البر عن مالك والثوري والشافعي وأحمد وأبي ثور. وفي صحة ذلك عنهم بُعد، وإنما قول هؤلاء أنها في العشر وتطلب في لياليه كله.

واختلفوا في أرجى لياليه كما سبق، واستدل من رجح ليلة سبع وعشرين بأن أبيّ بن كعب كان يحلف على ذلك ويقول بالآية أو بالعلامة التي أخبرنا بها رسول الله أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها. خرجه مسلم. وخرجه أيضا بلفظ آخر عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: والله إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا رسول الله بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين.

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال: (يا رسول الله إني شيخ كبير عليل يشق عليّ القيام فمرني بليلة يوفقني الله فيها لليلة القدر. قال: عليك بالسابعة) وإسناده على شرط البخاري. وروى الإمام أحمد أيضا قال حدثنا يزيد بن هارون: أنبأنا شعبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله : (من كان منكم متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين أو قال: تحروها ليلة سبع وعشرين) يعني ليلة القدر، ورواه شبابة ووهب بن جرير عن شعبة مثله. ورواه أسود بن عامر عن شعبة مثله وزاد: (في السبع البواقي) قال شعبة: وأخبرني ثقة عن سفيان أنه إنما قال: في السبع البواقي يعني لم يقل: ليلة سبع وعشرين. قال أحمد في رواية ابنه صالح الثقة هو يحيى بن سعيد قال شعبة: فلا أدري أيهما قال. ورواه عمرو عن شعبة وقال في حديثه: (ليلة سبع وعشرين) أو قال: (في السبع الأواخر) بالشك

فرجع الأمر إلى أن شعبة شك في لفظه ورواه حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمرو قال: كانوا لا يزالون يقصون على النبي إنها الليلة السابعة من العشر الأواخر، فقال رسول الله : (أرى رؤياكم قد تواطأت، إنها ليلة السابعة في العشر الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها ليلة السابعة من العشر الأواخر) كذا رواه حنبل بن إسحاق عن عارم عن حماد، وكذا خرجه الطحاوي عن إبراهيم بن مرزوق عن عارم، ورواه البخاري في صحيحه عن عارم إلا أنه لم يذكر لفظه ليلة السابعة، بل قال: (من كان متحريها فليتحرها في العشر الأواخر) ورواه عبد الرزاق في كتابه عن معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إني رأيت في النوم ليلة القدر كأنها ليلة سابعة فقال رسول الله : (إني أرى رؤياكم قد تواطأت إنها ليلة سابعة، فمن كان متحريها منكم فليتحرها في ليلة سابعة) قال معمر: فكان أيوب يغتسل في ليلة ثلاث وعشرين يشير إلى أنه حملها على سابعة تبقى. وخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق الحسن بن عبد الأعلى عن عبد الرزاق بهذا الإسناد وقال: في حديثه ليلة سابعة تبقى فقال رسول الله : (إني أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين) وهذه الألفاظ غير محفوظة في الحديث والله أعلم.

وفي سنن أبي داود بإسناد رجاله كلهم رجال الصحيح عن معاوية عن النبي في ليلة القدر ليلة سبع وعشرين) وخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه ابن عبد البر وله علة وهي وقفه على معاوية وهو أصح عند الإمام أحمد والدارقطني وقد اختلف أيضا عليه في لفظه وفي المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي فقال:

(متى ليلة القدر ؟ فقال: من يذكر منكم ليلة الصهباوات) قال عبد الله: أنا بأبي أنت وأمي وإن في يدي لتمرات أتسحر بهن مستترا بمؤخرة رحل من الفجر، وذلك حين طلع القمر. وخرجه يعقوب بن شيبة في مسنده وزاد: وذلك ليلة سبع وعشرين، وقال: صالح الإسناد. والصهباوات: موضع بقرب خيبر. وفي المسند أيضا من وجه آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي قال: (إن ليلة القدر في النصف من السبع الأواخر من رمضان) وإذا حسبنا أول السبع الأواخر ليلة أربع وعشرين كانت ليلة سبع وعشرين نصف السبع، لأن قبلها ثلاث ليال وبعدها ثلاث.

ومما يرجح أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين أنها من السبع الأواخر التي أمر النبي بالتماسها فيها بالاتفاق، وفي دخول الثالثة والعشرين في السبع اختلاف سبق ذكره. ولا خلاف أنها آكد من الخامس والعشرين، ومما يدل على ذلك أيضا حديث أبي ذر في قيام النبي بهم في أفراد السبع الأواخر، وإنه قام بهم في الثالثة والعشرين إلى ثلث الليل، وفي الخامسة إلى نصف الليل، وفي السابعة إلى آخر الليل حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح وجمع أهله ليلتئذ وجمع الناس وهذا كله يدل على تأكدها على سائر أفراد السبع والعشر

ومما يدل على ذلك ما استشهد به ابن عباس رضي الله عنه بحضرة عمر رضي الله عنه والصحابة معه واستحسنه عمر رضي الله عنه وقد روي من وجوه متعددة: فروى عبد الرزاق في كتابه عن معمر عن قتادة وعاصم أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا أنها في العشر الأواخر قال ابن عباس: فقلت لعمر رضي الله عنه: إني لأعلم أو إني لأظن أي ليلة هي ؟ قال عمر رضي الله عنه: وأي ليلة هي ؟: قلت: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر فقال عمر رضي الله عنه: ومن أين

علمت ذلك ؟ قال: فقلت: إن الله خلق سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام وإن الدهر يدور على سبع وخلق الله الإنسان في سبع ويأكل من سبع ويسجد على سبع والطواف بالبيت سبع ورمي الجمار سبع لأيشاء ذكرها فقال عمر رضي الله عنه: لقد فطنت لأمر ما فطنا له وكان قتادة يزيد على ابن عباس في قوله: يأكل من سبع قال هو قول الله عز وجل: (فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا) ولكن في هذه الرواية: أنها في سبع تمضي أو تبقى بالترديد في ذلك وخرجه ابن شاهين من رواية عبد الواحد بن زياد عن عاصم الأحول حدثني لاحق بن حميد وعكرمة قالا: قال عمر رضي الله عنه: من يعلم ليلة القدر ؟ فذكر الحديث بنحوه وزاد: أن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (هي في العشر سبع تمضي أو سبع تبقى) فخالف في إسناده وجعله مرسلا ورفع آخره روى ابن عبد البر بإسناد صحيح من طريق سعيد بن جبير قال: كان ناس من المهاجرين وجدوا على عمر في إدنائه ابن عباس فجمعهم ثم سألهم عن ليلة القدر فأكثروا فيها فقال بعضهم: كنا نراها في العشر الأوسط ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر فأكثروا فيها فقال بعضهم: ليلة إحدى وعشرين، وقال بعضهم: ليلة ثلاث وعشرون وقال بعضهم: ليلة سبع وعشرين فقال عمر رضي الله عنه: يا ابن عباس تكلم فقال: الله أعلم قال عمر: قد نعلم أن الله يعلم وإنما نسألك عن علمك فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله وتر يحب الوتر خلق من خلقه سبع سموات فاستوى عليهن وخلق الأرض سبعا وجعل عدة الأيام سبعا ورمي الجمار سبعا وخلق الإنسان من سبع وجعل رزقه من سبع فقال عمر: خلق الإنسان من سبع وجعل رزقه من سبع هذا أمر ما فهمته ؟ فقال: إن الله تعالى يقول: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) حتى بلغ آخر الآيات وقرأ: (أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا

* فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم) ثم قال: والأب للدواب. وخرجه ابن سعد في طبقاته عن إسحاق الأزرق عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير فذكره بمعناه وزاد في آخره: قال: وأما ليلة القدر فما تراها إن شاء الله إلا ليلة ثلاث وعشرين يمضين أو سبع يبقين، والظاهر إن هذا سمعه سعيد بن جبير من ابن عباس فيكون متصلا. وروى عاصم بن كليب عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا عمر الأشياخ من أصحاب محمد ذات يوم فقال لهم: إن رسول الله قال: في ليلة القدر ما قد علمتم التمسوها في العشر الأواخر وترا ففي أي الوتر ترونها ؟ فقال رجل برأيه: أنها تاسعة سابعة خامسة ثالثة ثم قال: يا ابن عباس تكلم فقلت: أقول برأي قال: عن رأيك أسألك ؟ فقلت: إني سمعت رسول أكثر من ذكر السبع وذكر باقيه بمعنى ما تقدم وفي آخره قال عمر رضي الله عنه: أعجزتم أن تقولوا مثل ما قال هذا الغلام الذي لم تستوي شؤون رأسه. خرجه الإسماعيلي في مسند عمر والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وخرجه الثعلبي في تفسيره وزاد: قال ابن عباس فما أراها إلا ليلة ثلاث وعشرين لسبع بقين. وخرج علي بن المديني في كتاب العلل المرفوع منه وقال: هو صالح وليس مما يحتج به وروى مسلم الملاي ـ وهو ضعيف ـ عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر قال له: أخبرني برأيك عن ليلة القدر فذكر معنى ما تقدم، وفيه أن ابن عباس قال: لا أراها إلا في سبع يبقين من رمضان، فقال عمر: وافق رأيي رأيك. وروي بإسناد فيه ضعف عن محمد بن كعب عن ابن عباس: أن عمر رضي الله عنه جلس في رهط من أصحاب النبي فتذاكروا ليلة القدر، فذكر معنى ما تقدم وزاد فيه عن ابن عباس أنه قال: وأعطي من المثاني سبعا، ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم الميراث في كتابه على

سبع، ونقع في السجود من أجسادنا على سبع وقال: فأراها في السبع الأواخر من رمضان. وليس في شيء من هذه الروايات أنها ليلة سبع وعشرين جزما بل في بعضها التردید بين ثلاث وسبع، وفي بعضها: أنها ليلة ثلاث وعشرين لأنها أول السبع الأواخر على رأيه، وقد صح عن ابن عباس أنه كان ينضح على أهله الماء ليلة ثلاث وعشرين. خرجه عبد الرزاق وخرجه ابن أبي عاصم مرفوعا والموقوف أصح.

وقد استنبط طائفة من المتأخرين من القرآن أنها ليلة سبع وعشرين موضعين: أحدهما: أن الله تعالى كرر ذكر ليلة القدر في سورة القدر في ثلاثة مواضع منها وليلة القدر حروفها تسع حروف والتسع إذا ضربت في ثلاثة فهي سبع وعشرون والثاني: أنه قال: سلام. فكلمة هي: هي الكلمة السابعة والعشرون من السورة فإن كلماتها كلها ثلاثون كلمة قال ابن عطية: هذا من ملح التفسير لا من متين العلم وهو كما قال ومما استدل به من رجح ليلة سبع وعشرين بالآيات والعلامات التي رأيت فيها قديما وحديثا وبما وقع فيها من إجابة الدعوات فقد تقدم عن أبي بن كعب أنه استدل على ذلك بطلوع الشمس في صبيحتها لا شعاع لها وكان عبدة ابن أبي لبابة يقول: هي ليلة سبع وعشرين ويستدل على ذلك فإنه قد جرب ذلك بأشياء وبالنجوم.خرجه عبدالرزاق. وروي عن عبدة أنه ذاق ماء البحر ليلة سبع وعشرين، فإذا هو عذب. ذكره الإمام أحمد بإسناده. وطاف بعض السلف ليلة سبع وعشرين بالبيت الحرام فرأى الملائكة في الهواء طائفين فوق رؤوس الناس. وروى أبوموسى المديني من طريق أبي الشيخ الأصبهاني بإسناد عن حماد بن شعيب عن رجل منهم قال: كنت بالسواد فلما كان في العشر الأواخر جعلت أنظر بالليل، فقال لي رجل منهم: إلى أي شيء تنظر ؟ قلت: إلى ليلة القدر قال: فنم فإني سأخبرك فلما كان ليلة سبع وعشرين جاء وأخذ بيدي فذهب بي إلى النخل، فإذا النخل واضع سعفه

في الأرض. فقال: لسنا نرى هذا في السنة كلها إلا في هذه الليلة. وذكر أبوموسى بأسانيد له أن رجلا مقعدا دعا الله ليلة سبع وعشرين فأطلقه. وعن امرأة مقعدة كذلك. وعن رجل بالبصرة كان أخرس ثلاثين سنة فدعا الله ليلة سبع وعشرين فأطلق لسانه فتكلم وذكر الوزير أبوالمظفر ابن هبيرة أنه رأى ليلة سبع وعشرين وكانت ليلة جمعة باباً في السماء مفتوحاً شامي الكعبة قال: فظننته حيال الحجرة النبوية المقدسة قال: ولم يزل كذلك إلى أن التفت إلى المشرق لأنظر طلوع الفجر ثم التفت إليه فوجدته قد غاب قال: وإن وقع في ليلة من أوتار العشر ليلة جمعة فهي أرجى من غيرها واعلم أن جميع هذه العلامات لا توجب القطع بليلة القدر وقد روى سلمة بن شبيب في كتاب (فضائل رمضان) حدثنا إبراهيم بن الحكم حدثني أبي قال: حدثني فرقد: أن أناسا من الصحابة كانوا في المسجد فسمعوا كلاما من السماء ورأوا نورا من السماء وبابا من السماء، وذلك في شهر رمضان فأخبروا رسول الله بما رأوا فزعم أن رسول الله قال: أما النور فنور رب العزة تعالى، وأما الباب فباب السماء، والكلام كلام الأنبياء، فكل شهر رمضان على هذه الحال ولكن هذه ليلة كشف غطاؤها) وهذا مرسل ضعيف

قيام ليلة القدر

وأما العمل في ليلة القدر فقد ثبت عن النبي أنه قال: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) وقيامها إنما هو إحياؤها بالتهجد فيها والصلاة، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها أيضا. قال سفيان الثوري: الدعاء في تلك الليلة أحب إليّ من الصلاة. قال: وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله في الدعاء والمسألة لعله يوافق انتهى. ومراده أن كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وإن قرأ ودعا كان حسنا وقد كان النبي يتهجد في ليالي رمضان ويقرأ قراءة مرتلة لا يمرّ بآية فيها رحمة إلا سأل، ولا بآية

فيها عذاب إلا تعوذ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكر. وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها. والله أعلم.

وقد قال الشعبي في ليلة القدر: ليلها كنهارها. وقال الشافعي في القديم: استحب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها. وهذا يقتضي استحباب الاجتهاد في جميع زمان العشر الأواخر، ليله ونهاره والله أعلم.

المحبون تطول عليهم الليالي فيعدونها غدا لانتظار ليالي العشر في كل عام، فإذا ظفروا بها نالوا مطلوبهم وخدموا محبوبهم.

قد مزّق الحب وقد غدوت حائرا
آه على تلك ما كن إلا كليالي
إن عدن لي من وفيت لله بكل نذر
وقام بالحمد خطيب شكري

رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين وأنفاس المحبين وقصص التائبين، ثم تعود برد الجواب بلا كتاب.

أعلمتموأن النسيم حمل الحديث إلى
جهل الحبيب بأنني بسهر الدجى عندي

فإذا ورد بريد برد السحر بحمل ملطفات الألطاف لم يفهمها غير من كتبت إليه

نسيم صبا نجد تحيتهم
ولا تذع السر أغار على ذكر

يا يعقوب الهجر، قد هبّت ريح يوسف الوصل، فلواستنشقت لعدت بعد العمى بصيرا، ولوجدت ما كنت لفقده فقيرا.

كان لي قلب ضاع مني في
رب فارده علي عيل صبري في
وأغثني ما دام بي يا غياث المستغيث

لو قام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار، ورفعوا قصص الاعتذار مضمونها: (يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) لبرز لهم التوقيع

عليها: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

أشكو إلى الله كما أولاد يعقوب إلى
قد مسني الضر تعلم حالي وترى
بضاعتي المزجاة إلى سماح من
فقد أتى المسكين جودك فارحم ذله
فاوف كيلي هذا المقل البائس

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني) العفو من أسماء الله تعالى، وهو يتجاوز عن سيئات عباده الماحي لأثارهم عنهم، وهو يحب العفو فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته، وكان النبي ﷺ يقول: (أعوذ برضاك من سخطك وعفوك من عقوبتك) قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه لم يبتل بالذنب أكرم الناس عليه. يشير إلى أنه ابتلى كثيرا من أوليائه وأحبابه بشيء من الذنوب ليعاملهم بالعفو، فإنه سبحانه يحب العفو، قال بعض السلف الصالح: لو علمت أحب الأعمال إلى الله تعالى لأجهدت نفسي فيه، فرأى قائلا يقول له في منامه: إنك تريد ما لا يكون، إن الله يحب أن يعفو ويغفر، وإنما أحب أن يعفو ليكون العباد كلهم تحت عفوه، ولا يدل عليه أحد منهم بعمل. وقد جاء في حديث ابن عباس مرفوعا: (إن الله ينظر ليلة القدر إلى المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيعفو عنهم ويرحمهم إلا أربعة: مدمن خمر وعاقا ومشاحنا وقاطع رحم).

لما عرف العارفون بجلاله خضعوا، ولما سمع المذنبون بعفوه طمعوا، ما تم إلا عفو الله أو النار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من الرحمة، ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه.

كان بعض المتقدمين يقول في دعائه: اللهم إن ذنوبي قد عظمت فجلت عن الصفة، وإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني. وقال آخر منهم: جرمي عظيم وعفوك كثير فاجمع بين جرمي وعفوك يا كريم.

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الأوزار في جنب عفو الله يصغر

وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر، لأن العارفين يجتهدون في الأعمال ثم لا يرون لأنفسهم عملا صالحا ولا حالا ولا مقالا فيرجعون إلى سؤال العفو كحال المذنب المقصر. قال يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

إن كنت لا أصلح فشأنك عفوعن

كان مطرف يقول في دعائه: اللهم ارض عنا فإن لم ترض عنا فاعف عنا، من عظمت ذنوبه في نفسه لم يطمع في الرضا، وكان غاية أمله أن يطمع في العفو، ومن كملت معرفته لم ير نفسه إلا في هذه المنزلة.

يا رب عبدك قد أتا ك وقد أساء وقد
يكفيه منك حياؤه من سوء ما قد
حمل الذنوب على بِ الموبقات
وقد استجار بذيل ك من عقابك
رب اعف وعافه فلأنت أولى من

المجلس السادس في وداع رمضان

في (الصحيحين)من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) وفيهما أيضا من حديث أبي هريرة أيضا رضي الله عنه عن النبي قال: (من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) وللنسائي في رواية: (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما

تقدم من ذنبه وما تأخر) وقد سبق في قيام ليلة القدر مثل ذلك من رواية عبادة بن الصامت، والتكفير بصيامه قد ورد مشروطا بالتحفظ مما ينبغي أن يتحفظ منه، ففي المسند وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي قال: (من صام رمضان فعرف حدوده وتحفظ مما ينبغي له أن يتحفظ منه كفر ذلك ما قبله) والجمهور على أن ذلك إنما يكفر الصغائر، ويدل عليه ما خرجه مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي قال: (الصلوات الخمس، الجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) وفي تأويله قولان: أحدهما: أن تكفير هذه الأعمال مشروط باجتناب الكبائر، فمن لم يجتنب الكبائر لم تكفر له الأعمال كبيرة ولا صغيرة. والثاني: أن المراد أن هذه الفرائض تكفر الصغائر خاصة بكل حال، وسواء اجتنبت الكبائر أولم تجتنب، وأنها لا تكفر الكبائر بحال، وقد قال ابن المنذر في قيام ليلة القدر: إنه يرجى به مغفرة الذنوب كبائرها وصغائرها. وقال غيره مثل ذلك في الصوم أيضا والجمهور على: أن الكبائر لا بد لها من توبة نصوح، وهذه المسائل قد ذكرناها مستوفاة في مواضع أخر، فدل حديث أبي هريرة رضي الله عنه على أن هذه الأسباب الثلاثة كل واحد منها مكفر لما سلف من الذنوب، وهي: صيام رمضان وقيامه وقيام ليلة القدر.

فقيام ليلة القدر بمجرده يكفر الذنوب لمن وقعت له كما في حديث عبادة بن الصامت، وقد سبق ذكره. وسواء كانت أول العشر أو أوسطه أو آخره، وسواء شعر بها أولم يشعر، ولا يتأخر تكفير الذنوب بها إلى انقضاء الشهر، وأما صيام رمضان وقيامه فيتوقف التكفير بهما على تمام الشهر، فإذا تم الشهر فقد كمل للمؤمن صيام رمضان وقيامه، فيترتب له على ذلك مغفرة ما تقدم من ذنبه بتمام السببين وهما صيامه وقيامه وقد يقال: إنه يغفر لهم عند استكمال القيام في آخر ليلة من

رمضان بقيام رمضان قبل تمام نهارها، وتتأخر المغفرة بالصيام إلى إكمال النهار بالصوم فيغفر لهم بالصوم في ليلة الفطر، ويدل على ذلك ما خرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (أعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم يعطها أمة غيرهم خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ويزين الله كل يوم جنته ويقول: يوشك عبادي أن يكفوا عنهم المؤنة والأذى ويصيروا إليك ويصفد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره ويغفر لهم في آخر ليلة فيه فقيل له: يا رسول الله أهي ليلة القدر ؟ قال: (لا ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله).

وقد روي أن الصائمين يرجعون يوم الفطر مغفورا لهم، وإن يوم الفطر يسمى يوم الجوائز وفيه أحاديث ضعيفة وقال الزهري (إذا كان يوم الفطر خرج الناس إلى الجبار اطلع عليهم قال: عبادي لي صمتم ولي قمتم ارجعوا مغفورا لكم) قال مورق العجلي لبعض إخوانه في المصلى يوم الفطر: يرجع هذا اليوم قوم كما ولدتهم أمهاتهم. وفي حديث أبي جعفر الباقر المرسل: (من أتى عليه رمضان فصام نهاره وصلى وردا من ليله، وغض بصره وحفظ فرجه ولسانه ويده وحافظ على صلاته في الجماعة، وبكر إلى الجمعة فقد صام الشهر واستكمل الأجر وأدرك ليلة القدر وفاز بجائزة الرب) قال أبوجعفر: جائزة لا تشبه جوائز الأمراء.

إذا أكمل الصائمون صيام رمضان وقيامه فقد وفوا ما عليهم من العمل، وبقي ما لهم من الأجر، وهو المغفرة، فإذا خرجوا يوم عيد الفطر إلى الصلاة قسمت عليهم أجورهم، فرجعوا إلى منازلهم وقد استوفوا الأجر واستكملوه،كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المرفوع: (إذا كان يوم الفطر هبطت الملائكة إلى الأرض

فيقومون على أفواه السكك ينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس يقولون: يا أمة محمد أخرجوا إلى رب كريم يعطي الجزيل ويغفر الذنب العظيم، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله عز وجل لملائكته: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فيقولون: إلهنا وسيدنا أن توفيه أجره، فيقول: إني أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم من صيامهم وقيامهم رضائي ومغفرتي انصرفوا مغفورا لكم) خرجه سلمة بن شبيب في كتاب فضائل رمضان وغيره وفي إسناده مقال، وقد روي من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا بعضه وقد روي معناه مرفوعا من وجوه أخر فيها ضعف: من وفى ما عليه من العمل كاملا وفى له الأجر كاملا، ومن سلم ما عليه وفرا تسلم ماله نقدا لا مؤخرا.

ما بعتكم مهجتي ولا أسلمها إلا يدا
فإن وفيتم بما وإن أبيتم يكون

ومن نقص من العمل الذي عليه نقص من الأجر بحسب نقصه، فلا يلم إلا نفسه قال سلمان: الصلاة مكيال فمن وفى وفي له، ومن طفّف فقد علمتم ما قيل في المطفّفين، فالصيام وسائر الأعمال على هذا المنوال من وفاها فهو من خيار عباد الله الموفين، ومن طفف فيها فويل للمطففين.

أما يستحي من يستوفي مكيال شهواته، ويطفف في مكيال صيامه وصلاته إلا بعد المدين في الحديث: (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته) إذا كان الويل لمن طفف مكيال الدنيا فكيف حال من طفف مكيال الدين: (فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون).

غدا توفى النفوس ويحصد الزارعون
إن أحسنوا أحسنوا وإن أسؤا فبئس

كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل، وإكماله وإتقانه ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ويخافون من رده، وهؤلاء الذين: (يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) روي عن علي رضي الله عنه قال:

كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله عز وجل يقول: (إنما يتقبل الله من المتقين) وعن فضالة بن عبيد قال: لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إليّ من الدنيا وما فيها لأن الله يقول: (إنما يتقبل الله من المتقين) قال ابن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشدّ من العمل. وقال عطاء السلمي: الحذر الاتقاء على العمل أن لا يكون لله. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهم أيقبل منهم أم لا. قال بعض السلف كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبله منهم. خرج عمر بن عبد العزيز رحمه الله في يوم عيد فطر فقال في خطبته: أيها الناس إنكم صمتم لله ثلاثين يوما وقمتم ثلاثين ليلة وخرجتم اليوم تطلبون من الله أن يتقبل منكم كان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر فيقال له: إنه يوم فرح وسرور فيقول: صدقتم ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملا فلا أدري أيقبله مني أم لا ؟ رأى وهب بن الورد قوما يضحكون في يوم عيد فقال: إن كان هؤلاء تقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين. وعن الحسن قال: إن الله جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون

لعلك غضبان سلام على الدارين

روي عن علي رضي الله عنه أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان: يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنيه، ومن هذا المحروم فنعزيه. وعن ابن مسعود أنه كان يقول: من هذا المقبول منا فنهنيه، ومن هذا المحروم منا فنعزيه، أيها المقبول هنيئا لك أيها المردود جبر الله مصيبتك

ليت شعري من فيهنا يا خيبة
من تولى عنه بغير أرغم الله أنفه

ماذا فات من فاته خير رمضان، وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان، كم بين من حظه فيه القبول والغفران، ومن كان حظه فيه الخيبة والخسران، رب قائم حظه من قيامه السهر، وصائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

ما أصنع هكذا جرى الجبر لغيري وأنا
أسير ذنب مقيد هل يمكن أن يغير

غيره:

سار القوم حازوا القرب
حسبي حسبي إلى أعداي داني

غيره:

ليت شعري من فيهنا يا خيبة
من تولى عنه بغير أرغم الله أنفه
أسباب هواك من بعد جفاك
ضاقت حيلي وأنت فارحم فالعبد

شهر رمضان تكثر فيه أسباب الغفران، فمن أسباب المغفرة فيه صيامه وقيامه وقيام ليلة القدر فيه كما سبق.

ومنها: تفطير الصوام والتخفيف عن المملوك وهما مذكوران في حديث سلمان المرفوع.

ومنها: الذكر وفي حديث مرفوع: (ذاكر الله في رمضان مغفور له).

ومنها: الاستغفار والاستغفار طلب المغفرة، ودعاء الصائم مستجاب في صيامه وعند فطره، ولهذا كان ابن عمر إذا أفطر يقول: اللهم يا واسع المغفرة اغفر لي. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع في فضل شهر رمضان: ويغفر فيه إلا لمن أبى قالوا: يا أبا هريرة ومن يأبى ؟ قال: يأبى أن يستغفر الله.

ومنها: استغفار الملائكة للصائمين حتى يفطروا، وقد تقدم ذكره. فلما كثرت أسباب المغفرة في رمضان كان الذي تفوته المغفرة فيه

محروما غاية الحرمان، وفي صحيح ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صعد المنبر فقال: آمين آمين آمين. قيل: يا رسول الله! إنك صعدت المنبر فقلت: آمين آمين آمين ؟ فقال: إن جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار، فأبعده الله قل آمين. فقلت: آمين. ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار، فأبعده الله قل آمين. فقلت: آمين. ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك، فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين. فقلت: آمين) وخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان أيضا من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: (رغم أنفه) وحسنه الترمذي وقال سعيد عن قتادة: كان يقال: من لم يغفر له في رمضان فلن يغفر له فيما سواه، وفي حديث آخر: إذا لم يغفر له في رمضان فمتى يغفر لمن لا يغفر له في هذا الشهر من يقبل، من رد في ليلة القدر متى يصلح من لا يصلح في رمضان حتى يصلح من كان به فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان كل مالا يثمر من الأشجار في أوان الثمار فإنه يقطع ثم يوقد في النار، من فرط في الزرع في وقت البدار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسارة.

ترحل شهر الصبر واختص بالفوز
وأصبح الغافل مثلي فيا ويحه يا
من فاته الزرع في تراه يحصد إلا الهم

(شهر رمضان شهر أوله رحمه وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار) روي هذا عن النبي من حديث سلمان الفارسي خرجه ابن خزيمة في صحيحه، وروي عنه أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه خرجه ابن أبي الدنيا وغيره، والشهر كله شهر رحمة ومغفرة وعتق، ولهذا في الحديث الصحيح: (إنه تفتح فيه أبواب الرحمة) وفي الترمذي وغيره: (إن لله عتقاء من النار) وذلك كل ليلة ولكن الأغلب على أوله الرحمة، وهي للمحسنين المتقين قال الله تعالى: (إن رحمة الله

قريب من المحسنين) وقال الله تعالى: (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) فيفاض على المتقين في أول الشهر خلع الرحمة والرضوان، ويعامل أهل الإحسان بالفضل والإحسان، وأما أوسط الشهر فالأغلب عليه المغفرة، فيغفر فيه للصائمين وإن ارتكبوا بعض الذنوب الصغائر فلا يمنعهم من المغفرة، كما قال الله تعالى: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) وأما آخر الشهر فيعتق من النار من أوبقته الأوزار، واستوجب النار بالذنوب الكبار، وفي حديث ابن عباس المرفوع: لله في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره) وخرجه سلمة بن شبيب وغيره. وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيدا لجميع الأمة لأنه تعتق فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار، فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار، كما أن يوم النحر هو العيد الكبر لأن قبله يوم عرفة وهو اليوم الذي لا يرى في يوم من الدنيا أكثر عتقا من النار منه، فمن أعتق من النار في اليومين فله يوم عيد، ومن فاته العتق في اليومين فله يوم وعيد.

ليس عيد المحب وانتظار الأمير
إنما العيد أن تكون كريما مقربا في

ورؤي بعض العارفين ليلة عيد في فلاة يبكي على نفسه وينشد:

بحرمة غربتي كم ألا تعطف على ألا
سرور العيد قد عم وحزني في ازدياد
فإن اقترفت خلال فعذري في الهوى

لما كانت المغفرة والعتق كل منهما مرتبا على صيام رمضان وقيامه أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة بتكبيره وشكره فقال: (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) فشكر من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام وإعانتهم عليه ومغفرته لهم وعتقهم من النار أن

يذكروه ويشكروه ويتقوه حق تقاته. وقد فسر ابن مسعود رضي الله عنه تقواه حق تقاته: بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

فيا أرباب الذنوب العظيمة! الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة، فما منها عوض ولا لها قيمة، فمن يعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

يا من أعتقه مولاه من النار! إياك أن تعود بعد أن صرت حرا إلى رق الأوزار، أيبعدك مولاك من النار وتتقرب منها، وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها؟!.

وإن امرءا ينجو من تزود من أعمالها

إن كانت الرحمة للمحسنين فالمسيء لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين فالظالم لنفسه غير محجوب عنها.

غيره:

إن كان عفوك لا فمن يجود على

غيره:

إن كان لا يرجوك فمن الذي

غيره:

لم لا يرجى العفو وكيف لا يطمع في

وفي الصحيح أتى أنه بعبده أرحم من

قال الله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا).

فيا أيها العاصي وكلنا ذلك لا تقنط من رحمة الله بسوء أعمالك، فكم يعتق من النار في هذه الأيام من أمثالك، فأحسن الظن بمولاك وتب إليه، فإنه لا يهلك على الله هالك.

إذا أوجعتك الذنوب برفع يد بالليل

ولا تقنطن من قنوطك منها من

فرحمته ورحمته للمذنبين

ينبغي لمن يرجو العتق في شهر رمضان من النار أن يأتي بأسباب توجب العتق من النار وهي

متيسرة في هذا الشهر، وكان أبوقلابة يعتق في آخر الشهر جارية حسناء مزينة يرجو بعتقها العتق من النار. وفي حديث سلمان الفارسي المرفوع الذي في صحيح ابن خزيمة: (من فطر صائما كان عتقا له من النار، ومن خفف فيه عن مملوكه كان له عتقا من النار) وفيه أيضا: (فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين: ترضون بها ربكم وخصلتين: لا غناء لكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم: شهادة أن لا إله إلا الله والاستغفار، وأما اللتان لا غناء لكم عنهما: فتسألون الله الجنة وتستعيذون به من النار) فهذه الخصال الأربعة المذكورة في الحديث كل منها سبب العتق والمغفرة: فأما كلمة التوحيد: فإنها تهدم الذنوب وتمحوها محوا ولا تبقي ذنبا ولا يسبقها عمل وهي تعدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار، ومن أتى بها أربع مرار حين يصبح وحين يمسي أعتقه الله من النار، ومن قالها مخلصا من قلبه حرمه الله على النار، وأما كلمة الاستغفار: فمن أعظم أسباب المغفرة، فإن الاستغفار دعاء بالمغفرة، ودعاء الصائم مستجاب في حال صيامه وعند فطره. وقد سبق حديث أبي هريرة المرفوع: (يغفر فيه ـ يعني شهر رمضان ـ إلا لمن أبى قالوا: يا أبا هريرة ومن أبى ؟ قال: من أبى أن يستغفر الله عز وجل) قال الحسن: أكثروا من الاستغفار فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة وقال لقمان لابنه: يا بني عود لسانك الاستغفار، فإن لله ساعات لا يرد فيهن سائلا وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في قوله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك). وفي بعض الآثار: أن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار. والاستغفار ختام الأعمال الصالحة كلها فيختم به الصلاة والحج وقيام الليل ويختم به المجالس، فإن كانت ذكرا كان كالطابع عليها، وإن كانت لغوا كان كفارة لها، فكذلك ينبغي أن تختم صيام رمضان بالاستغفار. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار

والصدقة الفطر،صدقة الفطر، فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرقع ما تخرق من الصيام باللغو والرفث، ولهذا قال بعض العلماء المتقدمين: إن صدقة الفطر للصائم كسجدتي السهو للصلاة، وقال عمر بن عبد العزيز في كتابه: قولوا كما قال أبوكم آدم: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقولوا كما قال نوح عليه السلام: (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وقولوا كما قال موسى عليه السلام: (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) وقولوا كما قال ذوالنون عليه السلام: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)
ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: الغيبة تخرق الصيام والاستغفار يرقعه، فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مرقع فليفعل. وعن ابن المنكدر معنى ذلك: الصيام جنة من النار ما لم يخرقها، والكلام السيء يخرق هذه الجنة، والاستغفار يرقع ما تخرق منها، فصيامنا هذا يحتاج إلى استغفار نافع، وعمل صالح له شافع.

كم نخرق صيامنا بسهام الكلام ثم نرقعه، وقد اتسع الخرق على الراقع! كم نرفو خروقه بمخيط الحسنات ثم نقطعه بحسام السيئات القاطع! كان بعض السلف إذا صلى صلاة استغفر من تقصيره فيها كما يستغفر المذنب من ذنبه.

إذا كان هذا حال المحسنين في عباداتهم فكيف حال المسيئين مثلنا في عباداتهم! ارحموا من حسناته كلها سيئات وطاعاته كلها غفلات.

أستغفر الله من طول زماني ومن
يوم يرى كله وصلاته أيما
مستيقظ في أحسن من يقظتي

وقريب من هذا أمر النبي عليه السلام لعائشة رضي الله عنها في ليلة القدر بسؤال العفو، فإن المؤمن يجتهد في شهر رمضان في صيامه وقيامه، فإذا قرب فراغه وصادف ليلة القدر لم يسأل الله تعالى إلا العفو،كالمسيء المقصر. كان صلة بن

أشيم يحي الليل ثم يقول في دعائه عند السحر: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يجتريء أن يسألك الجنة. كان مطرف يقول: اللهم ارض عنا فإن لم ترض عنا فاعف عنا. قال يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

إن كنت لا أصلح فشأنكم عفوعن

أنفع الاستغفار ما قارنته التوبة، وهي حل عقدة الإصرار، فمن استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقودُ، وعزمه أن يرجع إلى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول عنه مسدود.

قال كعب: من صام رمضان وهو يحدث نفسه أنه إذا أفطر بعد رمضان أنه لا يعصي الله دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب، ومن صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان عصى ربه فصيامه عليه مردود. وخرجه مسلمة بن شبيب.

ولولا التقى ثم لعاصيت في وقت

قضى ما قضى له عودة أخرى

وفي سنن أبي داود وغيره (عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي قال: لا يقولن أحدكم: صمت رمضان كله ولا قمت رمضان كله) قال أبوبكرة: فلا أدري أكره التزكية أم لا بد من غفلة.

أين من كان إذا صام صان الصيام! وإذا قام استقام في القيام! أحسنوا الإسلام ثم رحلوا بسلام، ما بقي إلا من إذا صام افتخر بصيامه وصال، وإذا قام أعجب بقيامه وقال: كم بين خلي وشجي، وواجد وفاقد، وكاتم ومبدي، وأما سؤال الجنة والاستعاذة من النار فمن أهم الدعاء، وقال النبي : (حولها ندندن) فالصائم يرجى استجابة دعائه، فينبغي أن لا يدعو إلا بأهم الأمور. قال أبومسلم: ما عرضت لي دعوة إلا صرفتها إلى الاستعاذة من النار، وقال: (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) في الحديث: (تعرضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله

نفحات من رحمته): (يصيب بها من يشاء من عباده) فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا، فإن أعظم نفحاته مصادفة دعوة الإجابة، يسأل العبد فيها الجنة والنجاة من النار فيجاب سؤاله، فيفوز بسعادة الأبد قال الله تعالى: (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) وقال: (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق) إلى قوله: (وأما الذين سعدوا ففي الجنة)

ليس السعيد الذي إن السعيد الذي

عباد الله! إن شهر رمضان قد عزم على الرحيل ولم يبق منه إلا القليل، فمن منكم أحسن فيه فعليه التمام، ومن فرط فليختمه بالحسنى والعمل بالختام، فاستغنموا منه ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعوه عملا صالحا يشهد لكم به عند الملك العلام، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام.

سلام من الرحمن على خير شهر قد

سلام على الصيام أمان من الرحمن

لئن فنيت أيامك فما الحزن من

لقد ذهبت أيامه وما أطعتم، وكتبت عليكم فيه آثامه وما أضعتم، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا وانقطعتم، أترى ما هذا التوبيخ لكم أوما سمعتم.

ما ضاع من أيامنا هيهات والأزمان

يوم بأرواح تباع وأخوه ليس يسام

قلوب المتقنين إلى هذا الشهر تحن ومن ألم فراقه تئن.

دهاك الفراق فما أتصبر للبين أم

إذا كنت تبكي وهم فكيف تكون إذا

كيف لا تجري للمؤمن على فراقه دموع! وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه رجوع.

تذكرت أياما مضت خلت فجرت من
ألا هل لها يوما من وهل لي إلى يوم
وهل بعد إعاض وهل لبدور قد

أين حرق المجتهدين في نهاره! أين قلق المجتهدين في أسحاره! فكيف حال من خسر في أيامه ولياليه! ماذا ينفع المفرط فيه بكاؤه! وقد عظمت فيه مصيبته، وجل عزاؤه، كم نصح المسكين فما قبل النصح! كم دعي إلى المصالحة فما أجاب إلى الصلح! كم شاهد الواصلين فيه وهو متباعد! كم مرت به زمر السائرين وهو قاعد حتى إذا ضاق به الوقت وخاف المقت ندم على التفريط حين لا ينفع الندم، وطلب الاستدراك في وقت العدم.

أتترك من تحب وتطلبهم وقد بعد
وتبكي بعد نأيهم وتسأل في
تركت سؤالهم وترجو أن تخبرك
فنفسك لم ولا تلم ومت كمدا فليس

يا شهر رمضان! ترفقُ دموع المحبين تدفق قلوبهم من ألم الفراق تشقق، عسى وقفة للوداع تطفىء من نار الشوق ما أحرق! عسى ساعة توبة وإقلاع ترفو من الصيام كلما تخرق! عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق! عسى أسير الأوزار يطلق! عسى من استوجب النار يعتق!.

عسى وعسى من إلى كل ما ترجو
فيجبر مكسور ويعتق خطاء

وظائف شوال

وفيه مجالس:

المجلس الأول في صيام شوال كله وإتباع رمضان بصيام ستة أيام من شوال.

خرج مسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي قال: (من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال كان كصيام الدهر) وقد اختلف في هذا الحديث وفي العمل به: فمنهم من صححه، ومنهم من قال: هو موقوف. قاله: ابن عيينة

وغيره وإليه يميل الإمام أحمد، ومنهم من تكلم في إسناده. وأما العمل به فاستحب صيام ستة من شوال أكثر العلماء. روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وطاووس والشعبي وميمون بن مهران وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، وأنكر ذلك آخرون وروي عن الحسن أنه كان إذا ذكر عنده صيام هذه الستة قال: لقد رضي الله بهذا الشهر لسنة كلها. ولعله إنما أنكر على من اعتقد وجوب صيامها، وأنه لا يكتفي بصيام رمضان عنها في الوجوب، وظاهر كلامه يدل على هذا، وكرهها الثوري وأبو حنيفة وأبو يوسف، وعلل أصحابهما ذلك مشابهة أهل الكتاب يعنون في الزيادة في صيامهم المفروض عليهم ما ليس منه، وأكثر المتأخرين من مشايخهم قالوا: لا بأس به وعللوا أن الفطر قد حصل بفطر يوم العيد. حكى ذلك صاحب الكافي منهم، وكان مهدي يكرهها ولا ينهى عنها، وكرهها أيضا مالك وذكر في الموطأ: أنه لم ير أحدا من أهل العلم يفعل ذلك وقد قيل: إنه كان يصومها في نفسه، وإنما كرهها على وجه يخشى منه أن يعتقد فريضتها، لئلا يزاد في رمضان ما ليس منه.

وأما الذين استحبوا صيامها فاختلفوا في صفة صيامها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يستحب صيامها من أول الشهر متتابعة، وهو قول الشافعي وابن المبارك. وقد روي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (من صام ستة أيام بعد الفطر متتابعة فكأنما صام السنة) خرجه الطبراني وغيره من طرق ضعيفة. وروي مرفوعا وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله بمعناه بإسناد ضعيف أيضا. والثاني: إنه لا فرق بين أن يتابعها أو يفرقها من الشهر كله وهما سواء. وهو قول وكيع وأحمد. والثالث: أنه لا يصام عقب يوم الفطر، فإنها أيام أكل وشرب، ولكن يصام ثلاثة أيام قبل أيام البيض، وأيام البيض أو بعدها. وهذا قول معمر وعبد الرزاق وروي عن عطاء حتى روي عنه أنه كره لمن عليه صيام من قضاء رمضان أن يصومه ثم

يصله بصيام تطوع وأمر بالفطر بينهما. وهو قول شاذ، وأكثر العلماء على: أنه لا يكره صيام ثاني يوم الفطر، وقد دل عليه حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي أنه قال لرجل: (إذا أفطرت فصم) وقد ذكرناه في صيام آخر شعبان، وقد سرد طائفة من الصحابة والتابعين الصوم إلا يوم الفطر والأضحى. وقد روي عن أم سلمة أنها كانت تقول لأهلها من كان عليه رمضان فليصمه الغد من يوم الفطر، فمن صام الغد من يوم الفطر فكأنما صام رمضان. وفي إسناده ضعف وعن الشعبي قال: لأن أصوم يوما بعد رمضان أحب إليّ من أن أصوم الدهر كله، ويروى بإسناد ضعيف عن ابن عمر مرفوعا: (من صام بعد الفطر يوما فكأنما صام السنة) وبإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا: (الصائم بعد رمضان كالكار بعد الفار).

وأما صيام شوال كله: ففي حديث رجل من قريش سمع النبي يقول: (من صام رمضان وشوالا والأربعاء والخميس دخل الجنة) وخرجه الإمام أحمد والنسائي وخرج الإمام أحمد وأبوداود والنسائي والترمذي من حديث مسلم القرشي عن النبي أنه سئل عن صيام الدهر ؟ فقال: (إن لأهلك عليك حقا، فصم رمضان والذي يليه، وكل أربعا وخميس فإذا أنت قد صمت الدهر وأفطرت) وخرج ابن ماجه بإسناد منقطع أن أسامة بن زيد كان يصوم الأشهر الحرم فقال له رسول الله (صم شوالا) فترك الأشهر الحرم، ثم لم يزل يصوم شوالا حتى مات. وخرجه أبويعلى الموصلي بإسناد متصل عن أسامة قال كنت أصوم شهرا من السنة، فقال لي رسول الله (أين أنت من شوال) فكان أسامة إذا أفطر أصبح الغد صائما من شوال حتى يأتي على آخره. وصيام شوال كصيام شعبان لأن كلا الشهرين حريم لشهر رمضان، وهما يليانه وقد ذكرنا في فضل صيام شعبان أن الأظهر أن صيامهما أفضل من صيام الأشهر الحرم، ولاخلاف

في ذلك وإنما كان صيام رمضان وإتباعه بست من شوال يعدل صيام الدهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها، وقد جاء ذلك مفسرا من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي قال: (صيام رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بشهرين فذلك صيام سنة) يعني رمضان وستة أيام من شوال بعده. خرجه الإمام أحمد والنسائي. وهذا لفظه وابن حبان في صحيحه. وصححه أبوحاتم الرازي وقال الإمام أحمد: ليس في حديث الرازي أصح منه، وتوقف فيه في رواية أخرى ولا فرق في ذلك بين أن يكون شهر رمضان ثلاثين أو تسعا وعشرين، وعلى هذا حمل بعضهم قول النبي :(شهرا عيد لا ينقصان رمضان و ذوالحجة) وقال: المراد كمال آخره سواء كان ثلاثين أو تسعا وعشرين، وأنه اتبع بستة أيام من شوال، فإنه يعدل صيام الدهر على كل حال. وكره إسحاق ابن راهويه أن يقال لشهر رمضان: أنه ناقص وإن كان تسعا وعشرين، لهذا المعنى فإن قال قائل: فلو صام هذه الستة أيام من غير شوال يحصل له هذا الفضل ؟ فكيف خص صيامها من شوال ؟ قيل: صيامها من شوال يلتحق بصيام رمضان في الفضل، فيكون له أجر صيام الدهر فرضا. ذكر ذلك ابن المبارك وذكر: أنه في بعض الحديث حكاه الترمذي في جامعه. ولعله أشار إلى ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها: أن من صام الغد من يوم الفطر فكأنما صام رمضان.

وفي معاودة الصيام بعد رمضان فوائد عديدة:

منها: أن صيام ستة أيام من شوال بعد رمضان يستكمل بها أجر صيام الدهر كله. كما سبق.

ومنها: أن صيام شوال وشعبان كصلاة السنن الرواتب قبل الصلاة المفروضة وبعدها، فيكمل بذلك ما حصل في الفرض من خلل ونقص، فإن الفرائض تجبر أو تكمل بالنوافل يوم القيامة، كما ورد ذلك عن النبي من وجوه متعددة، وأكثر الناس في صيامه للفرض نقص وخلل، فيحتاج إلى ما يجبره ويكمله من الأعمال، ولهذا نهى النبي : (أن

يقول الرجل صمت رمضان كله أو قمته كله). قال الصحابي فلا أدري أكره التزكية أم لا بد من الغفلة!. وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: من لم يجد ما يتصدق به فليصم. يعني من لم يجد ما يخرجه صدقة الفطر في آخر رمضان فليصم بعد الفطر، فإن الصيام يقوم مقام الإطعام في التكفير للسيئات، كما يقوم مقامه في كفارات الإيمان وغيرها من الكفارات في مثل كفارات القتل والوطء في رمضان والظهار.

ومنها: أن معاودة الصيام بعد صيام رمضان علامة على قبول صوم رمضان، فإن الله إذا تقبل عمل عبد وفقه لعمل صالح بعده كما قال بعضهم: ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بعد بحسنة كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى، كما أن من عمل حسنة ثم اتبعها بسيئة كان ذلك علامة رد الحسنة وعدم قبولها.

ومنها: أن صيام رمضان يوجب مغفرة ما تقدم من الذنوب كما سبق ذكره، وأن الصائمين لرمضان يوفون أجورهم في يوم الفطر وهو يوم الجوائز، فيكون معاودة الصيام بعد الفطر شكرا لهذه النعمة، فلا نعمة أعظم من مغفرة الذنوب (كان النبي يقوم حتى تتورم قدماه فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا) وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بشكر نعمة صيام رمضان بإظهار ذكره وغير ذلك من أنواع شكره فقال: (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) فمن جملة شكر العبد لربه على توفيقه لصيام رمضان وإعانته عليه ومغفرة ذنوبه أن يصوم له شكرا عقب ذلك، كان بعض السلف إذا وفق لقيام ليلة من الليالي أصبح في نهاره صائما، ويجعل صيامه شكرا للتوفيق للقيام، وكان وهيب بن الورد يسأل عن ثواب شيء من الأعمال كالطواف ونحوه ؟ فيقول: لا تسألوا عن ثوابه ولكن اسألوا ما الذي على من وفق لهذا العمل من

الشكر للتوفيق والإعانة عليه.

إذا أنت لم تزدد لمليكها شكرا
كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا يحتاج إلى شكر عليها، ثم للتوفيق للشكر عليها نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدا فلا يقدر العبد على القيام بشكر النعم، وحقيقة الشكر: الاعتراف بالعجز عن الشكر. كما قيل:

إذا كان شكري علي له في مثلها
فكيف بلوغ الشكر وإن طالت الأيام

قال أبوعمرو الشيباني: قال موسى عليه السلام يوم الطور: يا رب إن أنا صليت فمن قبلك، وإن أنا تصدقت فمن قبلك، وإن بلغت رسالاتك فمن قبلك، فكيف أشكرك؟ قال: يا موسى الآن شكرتني، فأما مقابلة نعمة التوفيق كصيام شهر رمضان بارتكاب المعاصي بعده فهو من فعل من بدل نعمة الله كفرا، فإن كان قد عزم في صيامه على معاودة المعاصي بعد انقضاء الصيام فصيامه عليه مردود، وباب الرحمة في وجهه مسدود. قال كعب: من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر من رمضان لم يعص الله دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب ومن صام رمضان وهو يحدث نفسه أنه إذا أفطر عصى ربه فصيامه عليه مردود.

ومنها: أن الأعمال التي كان العبد يتقرب بها إلى ربه في شهر رمضان لا تنقطع بانقضاء رمضان، بل هي باقية بعد انقضائه ما دام العبد حيا. وهذا معنى الحديث المتقدم: أن الصائم بعد رمضان كالكار بعد الفار. يعني كالذي يفر من القتال في سبيل الله ثم يعود إليه، وذلك لأن كثيرا من الناس يفرح بانقضاء شهر رمضان لاستثقال الصيام وملله، وطوله عليه، ومن كان كذلك فلا يكاد يعود إلى الصيام سريعا، فالعائد إلى الصيام بعد فطره يوم الفطر يدل عوده على رغبته في الصيام، وأنه لم يمله ولم يستثقله ولا تكرّه به. وفي حديث خرجه الترمذي مرفوعا: (أحب الأعمال إلى الله

الحال المرتحل) وفسر بصاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله: كلما حل ارتحل، والعائد إلى الصيام سريعا بعد فراغ صيامه شبيه بقاريء القرآن إذا فرغ من قراءته ثم عاد في المعنى. والله أعلم. وقيل لبشر: إن قوما يتعبدون ويجتهدون في رمضان فقال: بئس القوم لا يعرفون لله حقا إلا في شهر رمضان، إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها. سئل الشبلي: أيما أفضل رجب أم شعبان ؟ فقال: كن ربانيا ولا تكن شعبانيا، كان النبي عمله ديمة، وسئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان يخص يوما من الأيام ؟ فقالت: لا كان عمله ديمة، وقالت: كان النبي لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، وقد كان النبي يقضي ما فاته من أوراده في رمضان في شوال، فترك في عام اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ثم قضاه في شوال، فاعتكف العشر الأول منه. وسأل رجلا: هل صام من سرر شعبان شيئا؟ فقال:لا، فامره أن يصوم إذا افطر يعني يقضي ما فاته من صيام شعبان في شوال.

وقد تقدم عن أم سلمة أنها كانت تأمر أهلها: من كان عليه قضاء من شهر رمضان فليبدأ أن يقضيه الغد من يوم الفطر، فمن كان عليه قضاء من شهر رمضان فليبدأ بقضائه في شوال، فإنه أسرع لبراءة ذمته، وهو أولى من التطوع بصيام ستة من شوال، فإن العلماء اختلفوا فيمن عليه صيام مفروض هل يجوز أن يتطوع قبله أولا، وعلى قول من جوّز التطوع قبل القضاء فلا يحصل مقصود صيام ستة أيام من شوال إلا لمن أكمل صيام رمضان ثم أتبعه بست من شوال، فمن كان عليه قضاء من رمضان ثم بدأ بصيام ست من شوال حيث لم يكمل عدة رمضان، كما لا يحصل لمن أفطر رمضان لعذر بصيام ستة أيام من شوال آخر صيام السنة بغير إشكال، ومن بدأ بالقضاء في شوال ثم أراد أن يتبع ذلك بصيام ستة من شوال بعد تكمله قضاء رمضان كان حسنا لأنه يصير حينئذ قد صام

رمضان وأتبعه بست من شوال، ولا يحصل له فضل صيام ست من شوال بصوم قضاء رمضان، لأن صيام الست من شوال إنما تكون بعد إكمال عدة رمضان، عمل المؤمن لا ينقضي حتى يأتيه أجله. قال الحسن: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلا دون الموت ثم قرأ: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) هذه الشهور والأعوام والليالي والأيام كلها مقادير الآجال ومواقيت الأعمال، ثم تنقضي سريعا وتمضي جميعا والذي أوجدها وابتدعها وخصها بالفضائل وأودعها باق لا يزول، ودائم لا يحول، هو في جميع الأوقات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، فسبحان من قلب عباده في اختلاف الأوقات بين وظائف الخدم ليسبغ عليهم فيها فواضل النعم، ويعاملهم بنهاية الجود والكرم، لما انقضت الأشهر الحرم الثلاثة الكرام التي أولها الشهر الحرام، وآخر شهر الصيام أقبلت الأشهر الثلاثة أشهر الحج إلى بيت الله الحرام، فكما أن من صام رمضان وقامه غفر له ما تقدم من ذنبه، فمن حج البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فما يمضي من عمر المؤمن ساعة من الساعات إلا ولله فيها عليه وظيفة من وظائف الطاعات، فالمؤمن يتقلب بين هذه الوظائف، ويتقرب بها إلى مولاه وهو راج خائف، المحب لا يمل من التقرب بالنوافل إلى مولاه، ولا يأمل إلا قربه ورضاه.

ما للمحب سوى ... إن المحب بكل أمر

كل وقت يخيله العبد من طاعة مولاه فقد خسره، وكل ساعة يغفل فيها عن ذكر الله تكون عليه يوم القيامة ترة، فوا أسفاه على زمان ضاع في غير طاعته، وواحسرتاه على قلب بات في غير خدمته.

من فاته أن يراك ... فكل أوقاته فوات
وحيثما كنت من ... فلا إلى وجهك
إليكم هجرتي ... وأنتم الموت
أمنت أن توحشوا ... فآنسوا مقتلي

من عمل طاعة من الطاعات وفرغ منها فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية، ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها، وأحسن منها بعد الحسنة تتلوها، وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها، وتعفوها ذنب واحد بعد التوبة أقبح من سبعين ذنبا قبلها، النكسة أصعب من الضعفة وربما أهلكت، سلوا الله الثبات على الطاعات إلى الممات، وتعوذوا به من تقلب القلوب، ومن الحور بعد الكور، وما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة، وأوحش منه فقر الطمع بعد غنى القناعة، ارحموا عزيز قوم بالمعاصي ذل، وغني قوم بالذنوب افتقر.

ترى الحي الأولى على العهد كما
أم الدهر بهم خانوا ودهر المرء خوان
إذا عز بغير الله يوما معشر هانوا

يا شبان التوبة لاترجعوا إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفطام، فالرضاع إنما يصلح للأطفال لا للرجال، ولكن لا بد من الصبر على مرارة الفطام، فإن صبرتم تعوضتم عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان في القلوب، من ترك شيئا لله لم يجد فقده عوضه الله خيرا منه: (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم) وفي الحديث: (النظر سهم مسموم من سهام إبليس، من تركه من خوف الله أعطاه إيمانا يجد حلاوته في قلبه) خرجه الإمام أحمد. وهذا الخطاب للشباب، فأما الشيخ إذا عاود المعاصي بعد انقضاء رمضان فهو أقبح وأقبح، لأن الشباب يؤمل معاودة التوبة في آخر عمره، وهو مخاطر، فإن الموت قد يعاجله وقد يطرقه بغتة، وأما الشيخ فقد شارف مركبه على ساحل بحر المنون فماذا يؤمل؟!.

نعى لك ظل ونادتك باسم
فكن مستعدا فكل الذي هوآت
ألسنا نرى شهوات س تفنى وتبقى
يخاف على نفسه فكيف يكون الذي

المجلس الثاني:
في ذكر الحج وفضله والحث عليه

في (الصحيحين)عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيل الله ثم حج مبرور)
هذه الأعمال الثلاثة ترجع في الحقيقة إلى عملين:
أحدهما: الإيمان بالله ورسوله وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما فسر النبي الإيمان بذلك في سؤال جبريل وفي غيره من الأحاديث، وقد ذكر الله تعالى الإيمان بهذه الأصول في مواضع كثيرة من كتابه كأول البقرة ووسطها وآخرها.
والعمل الثاني: الجهاد في سبيل الله تعالى وقد جمع الله بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) الآية وفي قوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقد صحّ عن النبي من غير وجه: (أن أفضل الأعمال: الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله) فالإيمان المجرد يدخل فيه الجوارح عند السلف، وأهل الحديث والإيمان المقرون بالعمل يراد به التصديق مع القول، وخصوصا إن قرن الإيمان بالله بالإيمان برسوله كما في هذا الحديث. فالإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلام الطيب كما قال النبي : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبته

ورجائه وإجابته والإنابة إليه والتوكل عليه. قال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنه بما وقر في الصدور وصدقته الأعمال. ويشهد لذلك قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا) وفي هذا يقول بعضهم:

ما كل من زوق لي يغرني يا صاح
من حقق الإيمان لا بد أن يظهر

فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته ظهرت ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد حره للظمآن الشديد عطشه، ويصير الخروج من الإيمان أكره إلى القلوب من الإلقاء في النار، وأمرّ عليها من الصبر. ذكر ابن المبارك عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه دخل المدينة فقال لهم: ما لي لا أرى عليكم يا أهل المدينة حلاوة الإيمان، والذي نفسي بيده لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان لرؤي عليه حلاوة الإيمان.

لو ذاق طعم لكاد من جوده يميد
قد حملوني تكليف يعجز عن حمله

فالإيمان بالله ورسوله وظيفة القلب واللسان ثم يتبعهما عمل الجوارح، وأفضلها الجهاد في سبيل الله وهو نوعان: أفضلهما: جهاد المؤمن بعدوه الكافر وقتاله في سبيل الله، فإن فيه دعوة له إلى الإيمان بالله ورسوله ليدخل في الإيمان قال الله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) قال أبوهريرة رضي الله عنه في هذه الآية: يجيئون بهم في السلاسل حتى يدخلونهم الجنة، وفي الحديث المرفوع: (عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل) فالجهاد في سبيل الله دعاء

الخلق إلى الإيمان بالله ورسوله بالسيف واللسان بعد دعائهم إليه بالحجة والبرهان، وقد كان النبي في أول الأمر لا يقاتل قوما حتى يدعوهم، فالجهاد به تعلوكلمة الإيمان وتتسع رقعة الإسلام ويكثر الداخلون فيه، وهو وظيفة الرسل وأتباعهم، وبه تصير كلمة الله هي العليا، والمقصود منه أن يكون الدين كله لله، والطاعة له، كما قال تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) والمجاهد في سبيل الله هو المقاتل لتكون كلمة الله هي العليا خاصة. والنوع الثاني من الجهاد: جهاد النفس في طاعة الله كما قال النبي : (المجاهد من جاهد نفسه في الله) وقال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو؟: ابدأ بنفسك فاغزها وابدأ بنفسك فجاهدها، وأعظم مجاهدة النفس على طاعة الله عمارة بيوته بالذكر والطاعة، قال الله تعالى: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) وفي حديث أبي سعيد الخدري المرفوع: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ثم تلا الآية) خرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الله تعالى: (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الآية. والنوع الأول من الجهاد أفضل من هذا الثاني قال الله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله* وأولئك هم الفائزون). وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كنت عند منبر النبي فقال رجل: لا أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: لا أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل

مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عز وجل: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر) إلى آخر الآية.

فهذا الحديث الذي فيه ذكر سبب نزول هذه الآية يبين أن المراد أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى من أعمال النوافل والتطوع الجهادُ، وأن الآية تدل على أن أفضل ذلك الجهاد مع الإيمان فدل على التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وعلى مثل هذا يحمل حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذا، وأن الجهاد أفضل من الحج المتطوع به، فإن فرض الحج تأخر عند كثير من العلماء إلى السنة التاسعة، ولعل النبي قال هذا الكلام قبل أن يفرض الحج بالكلية، فكان حينئذ تطوعا وقد قيل: إن الجهاد كان في أول الإسلام فرض عين فلا إشكال في هذا على تقديمه على الحج قبل افتراضه، فأما بعد أن صار الجهاد فرض كفاية والحج فرض عين فإن الحج المفترض حينئذ يكون أفضل من الجهاد.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: حجة قبل الغزو أفضل من عشر غزوات، وغزوة بعد حجة أفضل من عشر حجات. وروي ذلك مرفوعا من وجوه متعددة في أسانيدها مقال، وقال الصبي بن معبد: كنت نصرانيا فأسلمت فسألت أصحاب محمد : الجهاد أفضل أم الحج ؟ فقالوا: الحج. والمراد والله أعلم: أن الحج أفضل لمن لم يحج حجة الإسلام، مثل الذي أسلم. وقد يكون المراد بحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن جنس الجهاد أشرف من جنس الحج، فإن عرض للحج وصف يمتاز به على الجهاد وهو كونه فرض عين صار ذلك الحج المخصوص أفضل من الجهاد، وإلا فالجهاد أفضل والله أعلم. وقد دل حديث أبي هريرة رضي الله عنه على أن أفضل الأعمال بعد الجهاد في سبيل

الله جنس عمارة المساجد بذكر الله وطاعته، فيدخل في ذلك الصلاة والذكر والتلاوة والاعتكاف وتعليم العلم النافع واستماعه، وأفضل من ذلك عمارة أفضل المساجد وأشرفها وهو المسجد الحرام بالزيارة والطواف، فلهذا خصه بالذكر وجعل قصده للحج أفضل الأعمال بعد الجهاد، وقد خرجه ابن المنذر ولفظه ثم حج مبرور أو عمرة، وقد ذكر الله تعالى هذا البيت في كتابه بأعظم ذكر وأفخم تعظيم وثناء، قال الله تعالى: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) الآيات. وقال تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وقال تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق). فعمارة سائر المساجد سوى المسجد الحرام وقصدها للصلاة فيها وأنواع العبادات من الرباط في سبيل الله تعالى، كما قال النبي ﷺ: (إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط) فأما المسجد الحرام بخصوصه فقصده لزيارته وعمارته بالطواف الذي خصه الله به من نوع الجهاد في سبيل الله عز وجل، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد فقال: (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) يعني أفضل جهاد النساء. ورواه بعضهم: (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) فيكون صريحا في هذا المعنى، وقد خرجه البخاري بلفظ آخر وهو: (جهادكن الحج) وهو كذلك. وفي المسند وسنن ابن ماجه عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي قال: (الحج جهاد كل ضعيف) وخرج البيهقي وغيره من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (جهاد الكبير والضعيف والمرأة الحج والعمرة) وفي حديث مرسل :الحج جهاد والعمرة تطوع. وفي حديث آخر مرسل خرجه عبد الرزاق أن رجلا قال للنبي ﷺ: إني جبان لا أطيق لقاء العدو قال: (ألا أدلك على جهاد لا قتال فيه؟ قال: بلى! قال: عليك بالحج والعمرة) وخرج أيضا من مراسيل علي بن الحسين أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الجهاد فقال: (ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه: الحج) وفيه عن عمر أنه قال: إذا وضعتم السروج يعني من سفر الجهاد، فشدوا الرحال إلى الحج والعمرة، فإنه أحد الجهادين، وذكره البخاري تعليقا. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنما سرج ورحل فالسرج في سبيل الله والرحل الحج. خرجه الإمام أحمد في مناسكه. وإنما كان الحج والعمرة جهادا لأنه يجهد المال والنفس والبدن كما قال أبوالشعثاء نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن دون المال، والصيام كذلك والحج يجهدهما، فرأيته أفضل.

وروى عبد الرزاق بإسناده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رجلا سأله عن الحج؟ قال: إن الحاج يشفع في أربعمائة بيت من قومه، ويبارك في أربعين من أمهات البعير الذي حمله، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. فقال له رجل: يا أبا موسى إني كنت أعالج الحج، وقد كبرت وضعفت، فهل من شيء يعدل الحج؟ فقال له: هل تستطيع أن تعتق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل؟ فأما الحل والرحيل: فلا أجد له عدلا، أو قال مثلا، وبإسناده عنه طاوس أنه سئل هل الحج بعد الفريضة أفضل أم الصدقة ؟ قال: فأين الحل والرحيل والسهر والنصب والطواف بالبيت والصلاة عنده والوقوف بعرفة، وجمع ورمي الجمار، كأنه يقول الحج أفضل.

وقد اختلف العلماء في تفضيل الحج تطوعا أو الصدقة، فمنهم من رجح الحج كما قال طاوس وأبوالشعثاء، وقال الحسن أيضا، ومنهم من رجح

الصدقة، وهو قول النخعي ومنهم من قال: إن كان ثم رحم محتاجه أو زمن مجاعة، فالصدقة أفضل، وإلا فالحج. وهو نص أحمد. وروي عن الحسن معناه وإن صلة الرحم والتنفيس عن المكروب أفضل من التطوع بالحج. وفي كتاب عبد الرزاق بإسناد ضعيف عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله سئل عن رجل حج فأكثر أيجعل نفقته في صلة أو عتق ؟ فقال النبي : (طواف سبع لا لغو فيه يعدل رقبة) وهذا يدل على تفضيل الحج.

واستدل من رأى ذلك أيضا بأن النفقة في الحج أفضل من النفقة في سبيل الله، وفي مسند الإمام أحمد عن بريدة رضي الله عنه عن النبي قال: (النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف) وخرجه الطبراني من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي : (النفقة في سبيل الله الدرهم فيه بسبعمائة) ويدل عليه قوله تعالى: (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين * وأتموا الحج والعمرة لله). ففيه دليل على أن النفقة في الحج والعمرة تدخل في جملة النفقة في سبيل الله، وقد كان بعض الصحابة جعل بعيره في سبيل الله فأرادت امرأته أن تحج عليه، فقال لها النبي : (حجي عليه فإن الحج في سبيل الله) وقد خرجه أهل المسانيد والسنن من وجوه متعددة وذكره البخاري تعليقا، وهذا يستدل به على أن الحج يصرف فيه من سهم سبيل الله المذكور في آية الزكاة، كما هو أحد قولي العلماء فيعطى من الزكاة من لم يحج ما يحج به، وفي إعطائه لحج التطوع اختلاف بينهم أيضا.

الحج المبرور

وفي الحديث الصحيح عن النبي أنه قال: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) وفي المسند أن النبي سئل: أي الأعمال أفضل ؟ قال: (إيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجة برة تفضل سائر

الأعمال ما بين مطلع الشمس إلى مغربها) وثبت عنه أنه قال: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) فمغفرة الذنوب بالحج ودخول الجنة به مرتب على كون الحج مبرورا.

وإنما يكون مبرورا باجتماع أمرين فيه، أحدهما: الإتيان فيه بأعمال البر، والبر يطلق بمعنيين: أحدهما: بمعنى الإحسان إلى الناس كما يقال البر والصلة، وضده العقوق، وفي صحيح مسلم أن النبي سئل عن البر ؟ فقال: (حسن الخلق) وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (إن البر شيء هين: وجه طليق وكلام لين) وهذا يحتاج إليه في الحج كثيرا أعني معاملة الناس بالإحسان بالقول والفعل. قال بعضهم: إنما سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. وفي المسند عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي قال: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. قالوا: وما برّ الحج يا رسول الله ؟ قال: إطعام الطعام وإفشاء السلام) وفي حديث آخر: (وطيب الكلام) وسئل سعيد بن جبير: أي الحج أفضل ؟ قال: من أطعم الطعام وكفّ لسانه. قال الثوري: سمعت أنه من بر الحج. وفي مراسيل خالد بن معدان عن النبي قال: (ما يصنع من يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه خصال ثلاثة: ورع يحجزه عما حرم الله وحلم يضبط به جهله وحسن صحابة لمن يصحب وإلا فلا حاجة لله بحجه) وقال أبوجعفر الباقر: ما يعبأ بمن يؤم هذا البيت إذا لم يأت بثلاثة: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به غضبه، وحسن الصحابة لمن يصحبه من المسلمين. فهذه الثلاثة يحتاج إليها في الأسفار خصوصا في سفر الحج، فمن كملها فقد كمل حجه وبر، ومن أجمع خصال البر التي يحتاج إليها الحاج ما وصى به النبي أبا جزي الهجيمي فقال: (لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تعطي صلة

الحبل ولو أن تعطي شسع النعل ولو أن تنحي الشي من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك المسلم عليه فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض). وفي الجملة: فخير الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس كما وصف الله المتقين بذلك في قوله تعالى: (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين). والحاج يحتاج إلى مخالطة الناس، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم. قال ربيعة: المروءة في السفر بذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله عز وجل. وجاء رجلان إلى ابن عون يودعانه ويسألانه أن يوصيهما فقال لهما: عليكما بكظم الغيظ، وبذل الزاد. فرأى أحدهما في المنام: أن ابن عون أهدى إليهما حلتين. والإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة، لا سيما إن احتاج العابد إلى خدمة إخوانه. وقد كان النبي في سفر في حر شديد ومعه من هو صائم ومفطر، فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب فقال النبي : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر) وروي أنه كان في سفر فرأى رجلا صائما فقال له: (ما حملك على الصوم في السفر ؟ فقال: معي ابناي يرحلان بي ويخدماني، فقال له: ما زال لهما الفضل عليك) وفي مراسيل أبي داود عن أبي قلابة رضي الله عنه قال: قدم ناس من أصحاب رسول الله من سفر يثنون على صاحب لهم قالوا: ما رأينا مثل فلان قط، ما كان في مسير إلا كان في قراءة، ولا نزلنا منزلا إلا كان في صلاة، قال: (فمن كان يكفيه ضيعته ؟ حتى ذكر: ومن كان يعلف دابته؟ قالوا: نحن قال: فكلكم خير منه) وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني. وكان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن

يخدمهم اغتناما لأجر ذلك منهم: عامر بن عبد قيس وعمرو بن عتبة بن فرقد مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان، وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره فيشترط عليهم أن يخدمهم، فكان إذا رأى رجلا يريد أن يغسل ثوبه قال له: هذا من شرطي فيغسله، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه قال: هذا من شرطي فيغسله، فلما مات نظروا في يده فإذا فيها مكتوب من أهل الجنة، فنظروا إليها فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم. وترافق بهيم العجلي -وكان من العبادين البكائين- ورجل تاجر موسر في الحج، فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على صدره، ثم قطرت على الأرض وقال: ذكرت بهذه الرحلة الرحلة إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغص عليه سفره ومعه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء الرجل الذي رافق بينهما إليه ليسلم عليهما، فبدأ بالتاجر فسلم عليه، وسأله عن حله مع بهيم. فقال له: والله ظننت إن في هذا الخلق مثله، كان والله يتفضل علي في النفقة وهو معسر وأنا موسر، ويتفضل علي في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب، ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر، فسأله عما كان يكرهه من كثرة بكائه؟ فقال: والله ألفت ذلك البكاء، وأشرب حبه قلبي حتى كنت أساعده عليه، حتى تأذى بنا الرفقة ثم ألفوا ذلك، فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا ويقول بعضهم لبعض: ما الذي جعلهما أولى بالبكاء منا، والمصير واحد! فجعلوا والله يبكون ونبكي ثم خرج من عنده، فدخل على بهيم فسلم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة، متحمل لهفوات الرفيق، فجزاك الله عني خيرا. وكان ابن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم، وكان إذا أراد الحج من بلده مر وجمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج، فيأخذ منهم

نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعاما ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فرد إلى كل واحد نفقته.

المعنى الثاني: مما يراد بالبر: فعل الطاعات كلها، وضده الإثم وقد فسر الله تعالى البر بذلك في قوله: (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب) الآية. فتضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر.

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.

وثالثها: إقام الصلاة.

ورابعها: إيتاء الزكاة.

وخامسها: الوفاء بالعهد.

وسادسها: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس.

وكلها يحتاج الحاج إليها فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبرورا بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن أركان الإسلام بعضها مرتبط ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتي بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهود في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله إيتاءه، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر. فهذه خصال البر، ومن أهمها للحاج: إقام الصلاة، فمن حج من غير إقام الصلاة لا سيما إن كان حجه تطوعا كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله وهو ألوف كثيرة.

وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، وكان النبي (يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها ويؤثر عليها) وحج مسروق فما نام إلا ساجدا، وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله يوميء إيماء، ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه حتى يشغل عنه بسماع صوت الحادي فلا يتفطن له. وكان المغيرة بن الحكيم الصنعاني يحج من اليمن ماشيا، وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده، ثم يلحق بالركب متى لحق فربما لم يلحقهم إلا في آخر النهار.

سلام الله على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك الأشباح، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل:

نزلوا بمكة في ... ونزلت بالبيداء

فنحن ما نأمر إلا بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت إحداهما بالأرض، فإنه لا يرخص لأحد أن يصلي صلاة الليل في النهار ولا صلاة النهار في الليل، ولا أن يصلي على ظهر راحلته المكتوبة إلا من خاف الانقطاع عن رفقته أو نحو ذلك مما يخاف على نفسه. فأما المريض ومن كان في ماء وطين ففي صلاته على الراحلة اختلاف مشهور للعلماء، وفيه روايتان عن الإمام أحمد وأن يكون بالطهارة الشرعية بالوضوء بالماء مع القدرة عليه، والتيمم عند العجز حسا أو شرعا، ومتى علم الله من عبد حرصه على إقام الصلاة على وجهها أعانه.

قال بعض العلماء: كنت في طريق الحج وكان الأمير يقف للناس كل يوم لصلاة الفجر فينزل فنصلي ثم نركب، فلما كان ذات يوم قرب طلوع الشمس ولم يقفوا للناس، فناديتهم فلم يلتفتوا إلى ذلك، فتوضأت على المحمل ثم نزلت للصلاة على الأرض، ووطنت نفسي على المشي إلى وقت نزولهم للضحى، وكانوا لا ينزلون إلى قريب وقت الظهر مع علمي بمشقة ذلك علي، وإني لا قدرة لي عليه، فلما صليت وقضيت صلاتي نظرت إلى

رفقتي فإذا هم وقوف، وقد كانوا لو سئلوا ذلك لم يفعلوه، فسألتهم عن سبب وقوفهم ؟ فقالوا: لما نزلت تعرقلت مقاود الجمال بعضها في بعض، فنحن في تخليصها إلى الآن قال: فجئت وركبت وحمدت الله عز وجل، وعلمت أنه ما قدم أحد حق الله على هوى نفسه وراحتها إلا رأى سعادة الدنيا والآخرة، ولا عكس أحد ذلك فقدم حظ نفسه على حق ربه إلا ورأى الشقاوة في الدنيا والآخرة، واستشهد بقول القائل:

والله ما جئتكم إلا وجدت الأرض
ولا ثنيت العزم عن إلا تعثرت بأذيالي

ومن أعظم أنواع بر الحج كثرة ذكر الله تعالى فيه، وقد أمر الله تعالى بكثرة ذكره في إقامة مناسك الحج مرة بعد أخرى، وقد روي أن النبي سئل: (أي الحاج أفضل ؟ قال: أكثرهم لله ذكرا) خرجه الإمام أحمد. وروي مرسلا من وجوه متعددة، وخصوصا كثرة الذكر في حال الإحرام بالتلبية والتكبير. وفي الترمذي وغيره عن النبي قال: (أفضل الحج العج والثج).

وفي حديث جبير بن مطعم المرفوع: (عجو التكبير عجا وثجوا الإبل ثجا) فالعج رفع الصوت في التكبير والتلبية، الثج إراقة دماء الهدايا، والنسك والهدي من أفضل الأعمال قال الله تعالى: (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير) الآية. وقال الله تعالى: (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وأهدى النبي في حجة الوداع مائة بدنة، وكان يبعث الهدي إلى منى فتنحر عنه وهو مقيم بالمدينة.

الأمر الثاني: مما يكمل به بر الحج: اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والمعاصي، قال الله تعالى: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى)

وفي الحديث الصحيح: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه).

وقد سبق حديث: (من لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله فليس لله حاجة في حجه) فما تزود حاج ولا غيره أفضل من زاد التقوى، ولا دعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى، وقد روي أن النبي ﷺ: (ودع غلاما للحج فقال له: زودك الله التقوى) قال بعض السلف لمن ودعه: اتق الله، فمن اتقى الله فلا وحشة عليه. وقال آخر: لمن ودعه للحج أوصيك بما وصى به النبي ﷺ معاذا حين ودعه: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) وهذه وصية جامعة لخصال البر كلها ولأبي الدرداء رضي الله عنه:

يريد المرء أن ويأبى الله إلا ما
يقول المرء وتقوى الله أفضل

ومن أعظم ما يجب على الحاج اتقاؤه من الحرام، وأن يطيب نفقته في الحج، وأن لا يجعلها من كسب حرام، وقد خرج الطبراني وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (إذا خرج الرجل حاجا بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك. ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك. ناداه مناد من السماء: لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك غير مبرور) مات رجل في طريق مكة فحفروا له فدفنوه، ونسوا الفأس في لحده فكشفوا عنه التراب ليأخذوا الفأس، فإذا رأسه وعنقه قد جمعا في حلقة الفأس، فردوا عليه التراب ورجعوا إلى أهله، فسألوهم عنه فقالوا: صحب رجلا فأخذ ماله، فكان منه يحج ويغزو.

إذا حججت بمال فما حججت ولكن
لا يقبل الله إلا كل ما كل من حج بيت

وما يجب اجتنابه على الحاج وبه يتم بر حجه أن لا يقصد بحجه رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا فخرا

ولا خيلاء، ولا يقصد به إلا وجه الله ورضوانه ويتواضع في حجه ويستكين ويخشع لربه. روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي حج على رحل رث وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: (اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة).

وقال عطاء: صلى رسول الله الصبح بمنى غداة عرفة ثم غدا إلى عرفات وتحته قطيفة اشتريت له بأربعة دراهم وهو يقول: (اللهم اجعلها حجة مبرورة متقبلة لا رياء فيها ولا سمعة).

وقال عبد الله بن الحارث: ركب رسول الله رحلا فاهتز به فتواضع لله عز وجل وقال: (لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة).

قال رجل لابن عمر: ما أكثر الحاج! فقال: ابن عمر: ما أقلهم. ثم رأى رجلا على بعير على رحل رث خطامه حبل فقال: لعل هذا. وقال شريح: الحاج قليل والركبان كثير، ما أكثر من يعمل الخير، ولكن ما أقل الذين يريدون وجهه.

خليلي قطاع كثير وأما

كان بعض المتقدمين يحج ماشيا على قدميه كل عام، فكان ليلة نائما على فراشه فطلبت منه أمه شربة ماء، فصعب على نفسه القيام من فراشه لسقي أمه الماء فتذكر حجه ماشيا كل عام وأنه لا يشق عليه فحاسب نفسه فرأى أنه لا يهونه عليه إلا رؤية الناس له ومدحهم إياه، فعلم أنه كان مدخولا.

قال بعض التابعين: رب محرم يقول: لبيك اللهم لبيك. فيقول الله: لا لبيك ولا سعديك، هذا مردود عليك. قيل له: لم ؟ قال: لعله اشترى ناقة بخمسمائة درهم، ورحلا بمائتي درهم، ومفرشا بكذا وكذا، ثم ركب ناقته ورجل رأسه ونظر في عطفيه، فذلك الذي يرد عليه. ومن هنا استحب للحاج أن يكون شعثا أغبر. وفي حديث المباهاة يوم عرفة أن الله تعالى يقول لملائكته: (انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا ضاحين اشهدوا أني قد غفرت لهم). قال عمر يوما وهو بطريق مكة: تشعثون وتغبرون وتتفلون وتضحون لا تريدون

بذلك شيئا من عرض الدنيا، ما نعلم سفرا خيرا من هذا. يعني الحج. وعنه قال: إنما الحاج الشعث التفل. وقال ابن عمر لرجل رآه قد استظل في إحرامه: أضح لمن أحرمت له، أي أبرز للضحى وهو حر الشمس.

أتاك الوافدون يسوقون المقلدة
فكم من قاصد ورهبا بين منتعل

سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمنا يترددون إليه ويرجعون عنه ولا يرون أنهم قضوا منه وطرا، لما أضاف الله تعالى ذلك البيت إلى نفسه ونسبه إليه بقوله عز وجل لخليله: (وطهر بيتي للطائفين) تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم، فكلما ذكر لهم ذلك البيت الحرام حنوا، وكلما تذكروا بعدهم عنه أنوا.

لا يذكر الرمل إلا له بذي الرمل
تهفو إلى البان وما بي البان بل

رأى بعض الصالحين الحاج في وقت خروجهم فوقف يبكي ويقول: واضعفاه، وينشد على أثر ذلك:

فقلت دعوني أكن طوع أيديكم

ثم تنفس وقال: هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت، فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلى رب البيت، يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق، ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن.

يا سائق العيس مني وبلغ السلام
عرض بذكري إن سمعوك
قل ذلك المحبوس معذب القلب بكل
يقول أملت بأن في جملة الوفد
أقعدني الحرمان ورمت أن أسعى

ينبغي للمنقطعين طلب الدعاء من الواصلين لتحصل المشاركة كما روي عن النبي قال لعمر لما أراد العمرة: (يا أخي أشركنا في دعائك) وفي

مسند البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج) وفي الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سمع رجلا يقول في الطواف: اللهم اغفر لفلان بن فلان فقال رسول الله ﷺ: (من هذا ؟ قال: رجل حملني أن أدعو له بين الركن والمقام فقال: قد غفر لصاحبك).

ألا قل لزوار دار هنيئا لكم في
أفيضوا علينا من فنحن عطاش

لئن سار القوم وقعدنا، وقربوا وبعدنا، فما يؤمننا أن نكون ممن كره الله أتباعهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

لله در ركائب تطوي القفار
رحلوا إلى البيت قلب المتيم
نزلوا بباب لا يخيب وقلوبهم بين

على أن المتخلف لعذر شريك للسائر كما قال النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك: (إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم خلفهم العذر).

يا سائرين إلى سرتم جسوما
إنا أقمنا على عذر ومن أقام على

وربما سبق بعض من سار بقلبه وهمته وعزمه بعض السائرين ببدنه. رأى بعض الصالحين في منامه عشية عرفة بعرفة قائلا يقول له: ترى هذا الزحام بالموقف؟ قال: نعم قال: ما حج منهم إلا رجل واحد تخلف عن الموقف فحج بهمته، فوهب الله له أهل الموقف، ما الشأن فيمن سار ببدنه، إنما الشأن فيمن قعد بدنه وسار بقلبه حتى سبق الركب.

من لي بمثل تمشي رويدا

يا سائرين إلى دار الأحباب قفوا للمنقطعين، تحملوا معكم رسائل المحصرين.

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى
يا سائرين إلى فالقلب بين
مالي سوى قلبي مالي سوى دمعي

كان عمر بن عبد العزيز إذا رأى من يسافر إلى المدينة النبوية يقول له: أقريء رسول الله مني السلام، وروي أنه كان يبرد عليه البريد من الشام.

هذه الخيف فترفق أيها
واحبس الركب ندب الربع ونبكي
فلذا الموقف ولذا اليوم الدموع
أتراكم في النقا أهل سلع تذكرونا
انقطعنا ووصلتم واشكروا المنعم يا
قد خسرنا وربحتم بفضول الربح من
سار قلبي خلف غير أن العذر عاق
ما قطعتم واديا إلا جئته أسعى بأقدام
آه وأشواقي إلى شوق محروم وقد
سلموا عني على أخبروهم أنني
أنا مذ غبتم على أترى عندكم ما
بيننا يوم أثيلات كان عن غير تراض
زمنا كان وكنا فأعاد الله ذاك

من شاهد تلك الديار، وعاين تلك الآثار ثم انقطع عنها لم يمت إلا بالأسف عليها والحنين إليها.

ما أذكر عيشنا إلا وجف القلب
واها لزماننا الذي واأسفا وهل يرد

المجلس الثالث:

فيما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما

يذكر بعد خروج الحاج في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء الفقراء إلى رسول الله فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما

نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون ؟ فقال رسول الله ﷺ: ألا أحدثكم بما لو أخذتم به لحقتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين) وفي المسند وسنن النسائي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله! ذهب الأغنياء بالأجر، يحجون ولا نحج، ويجاهدون ولا نجاهد، وبكذا وبكذا. فقال رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على شيء إن أخذتم به جئتم من أفضل ما يجيء به أحد منهم: أن تكبروا الله أربع وثلاثين وتسبحوه ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين في دبر كل صلاة).

المال لمن استعان به على طاعة الله وأنفقه في سبل الخيرات، القربة إلى الله سبب موصل له إلى الله، وهو لمن أنفقه في معاصي الله واستعان به على نيل أغراضه المحرمة، أو اشتغل به عن طاعة الله سبب قاطع له عن الله. كما قال أبوسليمان الداراني: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسبحان من جعل سببا واحدا للاتصال به والانقطاع عنه. وقد مدح الله في كتابه القسم الأول وذم القسم الثاني فقال في مدح الأولين: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور) والآيات في المعنى كثيرة جدا. وقال في ذم الآخرين: (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) وقد قال

ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أحد لا يؤتي زكاة ماله إلا سأل الرجعة عند الموت، ثم تلا هذه الآية، وأخبر عن أهل النار الذين يؤتي أحدهم كتابه بشماله أنه يقول: (ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه) والأحاديث في مدح من أنفق ماله في سبل الخيرات، وفي ذم من لم يؤد حق الله منه كثيرة جدا وقد : (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وقال: (الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله، ومن خلفه وقليل ما هم) وقال: (إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع) فالمؤمن الذي يأخذ المال من حقه ويضعه في حقه فله أجر ذلك كله، وكلما أنفق منه يبتغي به وجه الله فهو له صدقة يؤجر عليها، حتى ما يطعم نفسه فهو له صدقة، وما يطعم ولده فهو له صدقة، وما يطعم أهله فهو له صدقة، وما يطعم خادمه فهو له صدقة، وكان عامة أهل الأموال من أصحاب النبي من هذا القسم. قال أبوسليمان: كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف خازنين من خزان الله تعالى في أرضه ينفقان في طاعته، وكانت معاملتهم لله بقلوبهما، ورأس المنفقين أموالهم في سبيل الله من هذه الأمة أبوبكر الصديق رضي الله عنه، وفيه نزلت هذه الآية: (وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى) وفي صحيح الحاكم عن ابن الزبير قال: قال أبوقحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبوبكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد. قيل: وإنما أنزلت هذه الآيات فيه: (فأما من أعطى واتقى) إلى آخر السورة. وروي من وجه آخر عن ابن الزبير وخرجه الإسماعيلي، ولفظه: أن أبا بكر كان يبتاع الضعفة فيعتقهم، فقال له أبوقحافة: يا بني لو ابتعت من

يمنع ظهرك؟ فقال: يا أبت منع ظهري أريد، ونزلت فيه: (وسيجنبها الأتقى) إلى آخر السورة. وخرج أبوداود والترمذي من حديث عمر قال: أمرنا رسول الله أن نتصدق ووافق ذلك عندي مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله : (ما أبقيت لأهلك ؟ قلت: مثله، وإن أبا بكر أتى بكل ما عنده. فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقه إلى شيء أبدا) وخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبوبكر. وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله) وخرجه الترمذي بدون هذه الزيادة في آخره.

وكان من المنفقين أموالهم في سبيل الله عثمان بن عفان ففي الترمذي عن عبد الرحمن بن خباب قال: شهدت النبي وهو يحث على جيش العسرة فقام عثمان فقال: (يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش. فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش. فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال فرأيت رسول الله نزل على المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما فعل بعد هذه) وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن عثمان جاء إلى النبي بألف دينار حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره. قال: فرأيت النبي يقلبها في حجره ويقول: (ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم مرتين) وكان أيضا منهم عبد الرحمن بن عوف. وفي مسند الإمام أحمد أنه قدم له عير إلى المدينة، فارتجت لها المدينة فسألت عائشة عنها، وحدثت حديثا عن النبي فبلغ عبد

الرحمن فجعلها كلها في سبيل الله بأقتابها وأحلاسها، وكانت سبعمائة راحلة. وخرجه ابن سعد من وجه آخر فيه انقطاع، وعنده أنها كانت خمسمائة راحلة. وخرج الترمذي من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله كان يقول تعني لأزواجه: (إن أمركن لمما يهمني بعدي ولن يصبر عليكن إلا الصابرون. قال: ثم تقول عائشة لأبي سلمة: سقى الله أباك من سلسبيل الجنة، وكان قد وصل أزواج النبي بمال بيعت بأربعين ألفا) وقال: حسن غريب. وخرجه الحاكم وصححه وخرج الإمام أحمد أوله وخرج الإمام أحمد أيضا والحاكم من حديث أم بكر بنت المسور بن مخرمة أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضا له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسمها في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأمهات المؤمنين. قال المسور: فأتيت عائشة رضي الله عنها بنصيبها من ذلك، فقالت لنا: إني سمعت رسول الله يقول: لا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة) وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي قال لأزواجه: (إن الذي يحنو عليكن بعدي هو الصادق البار: اللهم ساق عبد الرحمن بن عوف من سلسبيل الجنة). وخرجه ابن سعد وزاد: إن إبراهيم بن سعد قال: حدثني بعض أهلي من ولد عبد الرحمن بن عوف أن عبد الرحمن بن عوف باع أمواله من كيدمة، وسهمه من بني النضير بأربعين ألف دينار، فقسمها على أزواج النبي . وخرج الترمذي من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه أن أباه عبد الرحمن بن عوف أوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائة ألف. وخرجه الحاكم ولفظه: بيعت بأربعين ألف دينار.

وأخبار الأجواد المنفقين أموالهم في سبيل الله من أصحاب رسول الله يطول ذكرها جدا،

وكان الفقراء من الصحابة كلما رأوا أصحاب الأموال منهم ينفقون أموالهم فيما يحبه الله من الحج والاعتمار والجهاد في سبيل الله والعتق والصدقة والبر والصلة وغير ذلك من أنواع البر والطاعات والقربات حزنوا لما فاتهم من مشاركتهم في هذه الفضائل، وقد ذكرهم الله في كتابه بذلك فقال تعالى: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون): نزلت هذه الآية بسبب قوم من فقراء المسلمين أتوا النبي وهو يتجهز إلى غزوة تبوك فطلبوا منه أن يحملهم؟ فقال لهم: (لا أجد ما أحملكم عليه) فرجعوا وهم يبكون حزنا على ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله . قال بعض العلماء: هذا والله بكاء الرجال، بكوا على فقدهم رواحل يتحملون عليها إلى الموت في مواطن تراق فيها الدماء في سبيل الله، وتنزع فيها رؤوس الرجال عن كواهلها بالسيوف، فأما من بكى على فقد حظه من الدنيا وشهواته العاجلة فذلك شبيه ببكاء الأطفال والنساء على فقد حظوظهم العاجلة.

سهرِ العيونِ لغير وبكاؤهن لغير

إنما يحسن البكاء والأسف على فوات الدرجات العلى والنعيم المقيم. قال بعضهم: يرى رجل في الجنة يبكي فيسأل عن حاله؟ فيقول: كانت لي نفس واحدة قتلت في سبيل الله، ووددت أنه كانت لي نفوس كثيرة تقتل كلها في سبيله.

غزا قوم في سبيل الله فلما صافوا عدوهم واقتتلوا رأى كل واحد منهم زوجته من الحور قد فتحت بابا من السماء وهي تستدعي صاحبها إليها وتحثه على القتال، فقتلوا كلهم إلا واحدا وكان كلما قتل منهم واحد غلق باب وغابت منه المرأة، فأفلت آخرهم فأغلقت تلك المرأة الباب الباقي

وقالت: ما فاتك يا شقي ؟ فكان يبكي على حاله إلى أن مات، ولكنه أورثه ذلك طول الاجتهاد والحزن والأسف.

على مثل ليلى وإن كان من ليلى

لما سمع الصحابة رضي الله عنهم قول الله عز وجل: (فاستبقوا الخيرات)،(سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) فهموا أن المراد من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم، أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملا يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له، فيحزن لفوات سبقه، فكان تنافسهم في درجات الآخرة، واستباقهم إليها، كما قال تعالى: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) ثم جاء من بعدهم فعكس الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنية وحظوظها الفانية، قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة. وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل. وقال بعض السلف: لوأن رجلا سمع بأحد أطوع لله منه كان ينبغي له أن يحزنه ذلك وقال غيره: لو أن رجلا سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات لم يكن ذلك بعجب.

قال رجل لمالك بن دينار: رأيت في المنام مناديا ينادي: أيها الناس الرحيل الرحيل فما رأيت أحدا يرتحل إلا محمد بن واسع، فصاح مالك وغشي عليه. (والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم). قال عمر بن عبد العزيز في حجة حجها عند دفع الناس من عرفة: ليس السابق اليوم من سبق به بعيره، إنما السابق من غفر له. كان رأس السابقين إلى الخيرات من هذه الأمة أبوبكر الصديق رضي الله عنه. قال عمر: ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقنا أبوبكر، وكان سباقا بالخيرات. ثم كان السابق بعده إلى الخيرات عمر، وفي آخر حجة حجها عمر جاء رجل لا يُعرف، كانوا

يرونه من الجن، فرثاه بأبيات منها:

فمن يسع أويركب ليدرك ما قدمت

صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية، وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى ولا يرجع عن مطلوبه، ولو تلفت نفسه في طلبه، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

قيل لبعض المجتهدين في الطاعات: لم تعذب هذا الجسد ؟ قال: كرامته أريد.

وإذا كانت النفوس تعبت في مرادها

قال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفسا تواقة، ما نالت شيئا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، وإنها لما نالت هذه المنزلة يعني الخلافة وليس في الدنيا منزلة أعلى منها، تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا. يعني الآخرة.

على قدر أهل وتأتي على قدر

قيمة كل إنسان ما يطلب، فمن كان يطلب الدنيا فلا أدنى منه، فإن الدنيا دنية وأدنى منها من يطلبها، وهي خسيسة وأخس منها من يخطبها، قال بعضهم: القلوب جوالة فقلب يجول حول العرش، وقلب يجول حول الحشّ، الدنيا كلها حشّ، وكل ما فيها من مطعم ومشرب يؤول إلى الحشّ، وما فيها من أجسام ولباس يصير ترابا. كما قيل: وكل الذي فوق التراب تراب، وقال بعضهم في يوم عيد لإخوانه: هل تنظرون إلا خرقا تبلى، أو لحما يأكله الدود غدا. وأما من كان يطلب الآخرة فقدره خطير، لأن الآخرة خطيرة شريفة، ومن يطلبها أشرف منها. كما قيل:

أثامن بالنفس وليس لها في

بها تدرك الأخرى بشيء من الدنيا

لئن ذهبت نفسي لقد ذهبت نفسي

وأما من كان يطلب الله فهو أكبر الناس عنده، كما أن مطلوبه أكبر من كل شيء. كما قيل:

له همم لا منتهى وهمته الصغرى

قال الشبلي: من ركن إلى الدنيا أحرقته بنارها فصار رمادا تذروه الرياح، ومن ركن إلى الآخرة أحرقته بنورها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن ركن إلى الله أحرقه بنور التوحيد فصار جوهرا لا قيمة له.

العالي الهمة يجتهد في نيل مطلوبه، ويبذل وسعه في الوصول إلى رضى محبوبه، فأما خسيس الهمة فاجتهاده في متابعة هواه، ويتكل على مجرد العفو، فيفوته إن حصل له، العفو منازل السابقين المقربين. قال بعض السلف: هب أن المسيء عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين.

فيا مذنب يرجومن أترضى بسبق
لما تنافس المتنافسون في نيل الدرجات غبط بعضهم بعضا بالأعمال الصالحات. قال النبي ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالا، فهو ينفقه في سبيل الله آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار) وفي رواية: (لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار يقول: لو أتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في حقه يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل) وهذا الحديث في الصحيحين. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: (إنما مثل هذه الأمة كأربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا وهو يقول: لو كان لي مثل هذا لعملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله ﷺ: فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته الله علما ولا مالا، فهو يقول: لو كان لي مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، قال رسول الله ﷺ: فهما في الوزر سواء) وروى حميد بن زنجويه بإسناده عن زيد بن أسلم قال: يؤتى يوم القيامة بفقير وغني اصطحبا في الله، فيوجد للغني فضل عمل فيما كان يصنع في ماله فيرفع على صاحبه، فيقول الفقير: يا رب لما رفعته وإنما

اصطحبنا فيك وعملنا لك. فيقول الله تعالى: له فضل عمل بما صنع في ماله. فيقول: يا رب لقد علمت لو أعطيتني مالا لصنعت مثل ما صنع. فيقول: صدق فارفعوه إلى منزلة صاحبه. ويؤتى بمريض وصحيح اصطحبا في الله، فيرفع الصحيح بفضل عمله. فيقول المريض: يا رب لم رفعته عليّ؟ فيقول: بما كان يعمل في صحته. فيقول: يا رب لقد علمت لو أصححتني لعملت كما عمل. فيقول الله: صدق فارفعوه إلى درجة صاحبه. ويؤتى بحرّ ومملوك اصطحبا في الله، فيقول مثل ذلك. ويؤتى بحسن الخلق وسيء الخلق، فيقول: يا رب لم رفعته عليّ وإنما اصطحبنا فيك وعملنا فيقول: بحسن خلقه فلا يجد له جوابا.

العاقل يغبط من أنفق ماله في سبيل الخيرات ونيل علو الدرجات، والجاهل يغبط من أنفق ماله في الشهوات، وتوصّل به إلى اللذات المحرمات. قال الله تعالى حاكيا عن قارون: (فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) إلى قوله: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين).

فلما رأى النبي تأسف أصحابه الفقراء وحزنهم على ما فاتهم من إنفاق إخوانهم الأغنياء أموالهم في سبيل الله تقربا إليه، وابتغاء لمرضاته، طيب قلوبهم ودلهم على عمل يسير يدركون به من سبقهم، ولا يلحقهم معه أحد بعدهم، ويكونون به خيرا ممن هم معه إلا من عمل مثل عملهم وهو: الذكر عقب الصلوات المفروضات. وقد اختلفت الروايات بأنواعه وعدده. والأخذ بكل ما ورد من ذلك حسن وله فضل عظيم. وفي حديث أبي هريرة هذا: أنهم يسبحون ويحمدون ويكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين. وقد فسره أبوصالح راوية عنه بالجمع وهو أن يقول: سبحان الله والحمد لله والله

أكبر ثلاثا وثلاثين مرة، فيكون جملة ذلك تسعا وتسعين.

وقد يستشكل على هذا حديث: أن رجلا سأل النبي ﷺ: عما يعدل الجهاد ؟ فقال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم فلا تفطر وتقوم ولا تفتر) وهو حديث ثابت صحيح أيضا فلم يجعل للجهاد عدلا سوى الصيام الدائم والقيام الدائم، وفي هذا الحديث قد جعل الذكر عقب الصلوات عدلا له ؟ والجمع بين ذلك كله: أن النبي لم يجعل للجهاد في زمانه عملا يعدله، بحيث إذا انقضى الجهاد انقضى ذلك العمل، واستوى العامل مع المجاهد في الأجر، وإنما جعل الذي يعدل الجهاد الذكر الكثير المستدام في بقية عمر المؤمن من غير قطع له، حتى يأتي صاحبه أجله، فإذا استمر على هذا الذكر في أوقاته إلى أن مات عليه عدل ذكره هذا الجهاد. وقد دل على ذلك أيضا ما خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا بلى! يا رسول الله. قال: ذكر الله عز وجل) وخرجه مالك في الموطأ موقوفا وخرج الإمام أحمد والترمذي أيضا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال: (الذاكرين الله كثيرا) قلت: يا رسول الله! ومن الغازي في سبيل الله ؟ قال: لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختصب دما لكان الذاكرون الله عز وجل أفضل منه درجة) وقد روي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وطائفة من الصحابة موقوفا، وأن الذكر لله أفضل من الصدقة بعدة دراهم ودنانير، ومن النفقة في سبيل الله، وقيل لأبي الدرداء رضي الله عنه: رجل أعتق مائة نسمة ؟ قال: إن مائة نسمة من مال رجل كثير، وأفضل من ذلك

إيمان ملزوم بالليل والنهار، وأن لا يزال لسان أحدكم رطبا من ذكر الله عز وجل. وعنه قال: لأن أقول لا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة دينار. ويروى مرفوعا وموقوفا من غير وجه: من فاته الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن عدوه أن يقاتله، فليكثر من سبحان الله وبحمده، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب أو فضة ينفقه في سبيل الله عز وجل. وذكر الله من أفضل أنواع الصدقة. وخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا: (ما صدقة أفضل من ذكر الله عز وجل) وقد قال طائفة من السلف في قول الله عز وجل: (وأقرضوا الله قرضا حسنا): إن القرض الحسن قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وفي مراسيل الحسن عن النبي قال: (ما أنفق عبد نفقة أفضل عند الله عز وجل من قول ليس من القرآن وهو من القرآن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) وروى عبد الرزاق في كتابه عن معمر عن قتادة قال: قال ناس من فقراء المؤمنين: يا رسول الله! ذهب أصحاب الدثور بالأجور يتصدقون ولا نتصدق وينفقون ولا ننفق، قال: (أرأيتم لو أن مال الدنيا وضع بعضه على بعض أكان بالغا السماء ؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: أفلا أخبركم بما أصله في الأرض وفرعه في السماء: أن تقولوا في دبر كل صلاة: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله. عشر مرات، فإن أصلهن في الأرض وفرعهن في السماء) وقد كان بعض الصحابة يظن أن لا صدقة إلا بالمال فأخبره النبي : (أن الصدقة لا تختص بالمال وأن الذكر وسائر أعمال المعروف صدقة) كما في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه: أن ناسا من أصحاب النبي قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم ؟ ! فقال النبي : (أوليس قد جعل الله لكم صلاة العشاء في جماعة تعدل حجة، وصلاة الغد في

جماعة تعدل عمرة). وقال أبوهريرة لرجل: بكورك إلى المسجد أحب إليّ من غزوتنا مع رسول الله ﷺ. ذكره الإمام أحمد.

أداء الواجبات كلها أفضل من التنفل بالحج والعمرة وغيرهما، فإنه ما تقرب العباد إلى الله تعالى بأحب إليه من أداء ما افترض عليهم، وكثير من الناس يهون عليه التنفل بالحج والصدقة ولا يهون عليه أداء الواجبات من الديون، ورد المظالم، وكذلك يثقل على كثير من النفوس التنزه عن كسب الحرام والشبهات، ويسهل عليها إنفاق ذلك في الحج والصدقة. قال بعض السلف: ترك دانق مما يكرهه الله أحبّ إليّ من خمسمائة حجة، كفّ الجوارح عن المحرمات أفضل من التطوع بالحج وغيره، وهو أشق على النفوس. قال الفضيل بن عياض: ما حج ولا رباط ولا جهاد أشدّ من حبس اللسان، ولو أصبحت يهمك لسانك أصبحت في هم شديد.

ليس الاعتبار بأعمال البر بالجوارح، وإنما الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها عن الآثام، سفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان، وسفر الآخرة ينقطع بسير القلوب. قال رجل لبعض العارفين: قد قطعت إليك مسافة. قال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة، وقد وصلت إلى مقصودك.

سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى.

جسمي معي غير فالجسم في غربة

قال بعض العارفين: عجبا لمن يقطع المفاوز والقفار ليصل إلى البيت فيشاهد فيه آثار الأنبياء، كيف لا يقطع هواه ليصل إلى قلبه فيرى فيه أثر. (ويسعني قلب عبدي المؤمن) أيها المؤمن: إن لله بين جنبيك بيتا، لو طهرته لأشرق ذلك البيت بنور ربه، وانشرح وانفسح. أنشد الشبلي:

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى
ومريضا أنت عائده قد أتاه الله بالفرج
وجهك المأمول يوم يأتي الناس

تطهيره تفريغه من كل ما يكرهه الله تعالى من أصنام النفس والهوى، ومتى بقيت فيه من ذلك بقية فالله أغنى الأغنياء عن الشرك، وهو لا يرضى بمزاحمة الأصنام. قال سهل بن عبد الله: حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله.

أردناكم صرفا فلما بعدتم بمقدار
وقلنا لكم لا تسكنوا فأسكنتم الأغيار

إخواني إن حبستم العام عن الحج فارجعوا إلى جهاد النفوس، فهو الجهاد الأكبر، أو أحصرتم عن أداء النسك فأريقوا على تخلفكم من الدموع ما تيسر، فإن إراقة الدماء لازمة للمحصر، ولا تحلقوا رؤوس أديانكم بالذنوب، فإن الذنوب حالقة الدين ليست حالقة الشعر، وقوموا لله باستشعار الرجاء والخوف مقام القيام بأرجاء الخيف والمشعر، ومن كان قد بعد عن حرم الله فلا يبعد نفسه بالذنوب عن رحمة الله، فإن رحمة الله قريب ممن تاب إليه واستغفر، ومن عجز عن حج البيت أو البيت منه بعيد، فليقصد رب البيت فإنه ممن دعاه ورجاه أقرب من حبل الوريد.

إليك قصدي رب فأنت سؤالي من حجي
وفيك سعيي والهدي جسمي الذي
ومسجد الخيف ومشعري ومقامي
زادي رجائي لكم والماء من عبراتي

وظيفة شهر ذي القعدة

خرج الإمام أحمد بإسناده عن رجل من باهلة قال: أتيت رسول الله ﷺ لحاجة مرة فقال: (من أنت ؟ قلت: أما تعرفني ؟ قال: ومن أنت ؟ قلت: أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول. فقال: إنك أتيتني وجسمك ولونك وهيئتك حسنة، فما بلغ بك؟ وما أرى ؟ قلت: والله ما أفطرت بعدك إلا ليلا. قال:

من أمرك أن تعذب نفسك؟ من أمرك أن تعذب نفسك ؟ ـ ثلاث مرات ـ صم شهر الصبر قلت: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني. قال: صم يوما من الشهر. قلت: إني أجد قوة، وإني أحب أن تزيدي. قال: فيومين من الشهر. قلت: إني أجد قوة، وإني أحب أن تزيدني. قال: ثلاثة أيام من الشهر. قال: ألحّ عند الرابعة فما كاد فقلت: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني قال: فمن الحرم وأفطر) وخرجه أبوداود والنسائي وابن ماجه بمعناه، وفي ألفاظهم زيادة ونقص، وفي بعض الروايات: (صم الحرم وأفطر) في هذا الحديث دليل على أن من تكلف من العبادة ما يشقّ عليه حتى تأذّى بذلك جسده، فإنه غير مأمور بذلك ولذلك قال النبي له: (من أمرك أن تعذب نفسك) وأعادها عليه ثلاث مرات، وهذا كما قال لمن رآه يمشي في الحج وقد أجهد نفسه: (إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه فمروه فليركب) وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص حيث كان يصوم النهار ويقوم الليل ويختم القرآن في كل ليلة، ولا ينام مع أهله، فأمره: (أن يصوم ويفطر ويقرأ القرآن في كل سبع) وقال له (إن لنفسك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فآت كل ذي حق حقه) ولما بلغه عن بعض الصحابة أنه قال: أنا أصوم ولا أفطر وقال آخر منهم: أنا أقوم ولا أنام وقال آخر منهم: لا أتزوج النساء فخطب وقال: (ما بال رجال يقولون: كذا وكذا: لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني) وسبب هذا: أن الله تعالى خلق ابن آدم محتاجا إلى ما يقوم به بدنه من مأكل ومشرب ومنكح وملبس، وأباح له من ذلك كله ما هو طيّب حلال، تقوى به النفس ويصح به الجسد، ويتعاونان على طاعة الله عز وجل، وحرم من ذلك ما هو ضار خبيث يوجب للنفس طغيانها وعماها وقسوتها وغفلتها وأشرها وبطرها، فمن أطاع نفسه في تناول ما تشتهيه مما حرمه الله عليه فقد تعدى وطغى وظلم نفسه، ومن منعها حقها من

المباح حتى تضررت بذلك فقد ظلمها ومنعها حقها، فإن كان ذلك سببا لضعفها وعجزها عن أداء شيء من فرائض الله عليه ومن حقوق الله عز وجل أو حقوق عباده كان بذلك عاصيا، وإن كان ذلك سببا للعجز عن نوافل هي أفضل مما فعله كان بذلك مفرّطا مغبونا خاسرا، وقد كان رجل في زمن التابعين يصوم ويواصل حتى يعجز عن القيام، فكان يصلي الفرض جالسا فأنكروا ذلك عليه حتى قال عمرو بن ميمون: لو أدرك هذا أصحاب محمد لرجموه. وكان ابن مسعود يقلّ الصيام ويقول: إنه يضعفني عن قراءة القرآن، وقراءة القرآن أحب إليّ، وأحرم رجل من الكوفة فقدم مكة، وقد أصابه الجهد فرآه عمر بن الخطاب وهو سيّء الهيئة فأخذ عمر بيده، وجعل يدور به الحلق، ويقول للناس: انظروا إلى ما يصنع هذا بنفسه، وقد وسع الله عليه فمن تكلف من التطوع ما يتضرر به في جسمه كما فعل هذا الباهلي، أو يمنع به حقا واجبا عليه كما فعل عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ممن عزم على ترك المباحات في عهد النبي ، فإنه ينهى عن ذلك ومن احتمل بدنه ذلك ولم يمنعه من حق واجب عليه لم ينه عن ذلك إلا أن يمنعه عما هوأفضل من ذلك من النوافل فإنه يرشد إلى عمل الأفضل وأحوال الناس تختلف فيما تحمل أبدانهم من العمل كان سفيان الثوري يصوم ثلاثة أيام من الشهر فيرى أثر ذلك عليه وكان غيره في زمنه يصوم الدهر فلا يظهر عليه أثره وكان كثير من المتقدمين يحملون على أنفسهم من الأعمال ما يضر بأجسادهم ويحتسبون أجر ذلك عند الله، وهؤلاء قوم أهل صدق وجد واجتهاد، فيحثون على ذلك. ولكن لا يقتدى بهم وإنما يقتدى بسنة رسول الله ، فإن خير الهدي هديه، ومن أطاعه فقد اهتدى، ومن اقتدى به وسلك وراءه وصل إلى الله عز وجل، وقد كان النبي ينهى عن التعسير ويأمر بالتيسير، ودينه الذي بعث به يسر، وكان يقول: (خير دينكم أيسره) ورأى رجلا يكثر الصلاة فقال:

(إنكم أمة أريد بكم اليسر) ولم يكن أكثر تطوع النبي وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة، بل ببر القلوب وطهارتها وسلامتها وقوة تعلقها بالله خشية له ومحبة وإجلالا وتعظيما ورغبة فيما عنده، وزهدا فيما يفنى، وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها أن النبي قال: (إني أعلمكم بالله وأتقاكم له قلبا). قال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه: أنتم أكثر صلاة وصياما من أصحاب محمد وهم كانوا خيرا منكم، قالوا: ولم ؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة. وقال بكر المزني: ما سبقهم أبوبكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره. قال بعض العلماء المتقدمين: الذي وقر في صدره هو حب الله، والنصيحة لخلقه. وسئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز بعد وفاته عن عمله ؟ فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا بأكثرهم صياما، ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم. قال بعض السلف: ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بسخاوة النفوس وسلامة الصدور والنصح للأمة. وزاد بعضهم واحتقار أنفسهم وذكر لبعضهم شدة اجتهاد بني إسرائيل في العبادة فقال: إنما يريد الله منكم صدق النية فيما عنده، فمن كان بالله أعرف فله أخوف وفيما عنده أرغب، فهو أفضل ممن دون في ذلك وإن كثر صومه وصلاته وقال أبوالدرداء رضي الله عنه: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يسبق سهر الجاهلين وصيامهم ولهذا المعنى كان فضل العلم النافع الدال على معرفة الله وخشيته ومحبته ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه لا سيما عند غلبة الجهل، والتعبد به أفضل من التطوع بأعمال الجوارح. قال ابن مسعود رضي الله عنه: أنتم في زمان العمل فيه أفضل من العلم، وسيأتي زمان العلم فيه أفضل من العمل.

وقال مطرف: فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع وخرجه الحاكم وغيره مرفوعا ونص كثير من الأئمة على: أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وكذلك الاشتغال بتطهير القلوب أفضل من الاستكثار من الصوم والصلاة مع غش القلوب ودغلها، ومثل من يستكثر من الصوم والصلاة مع دغل القلب وغشه كمثل من بذر بذرا في أرض دغلة كثيرة الشوك فلا يزكو ما ينبت فيها من الزرع، بل يمحقه دغل الأرض ويفسده، فإذا نظفت الأرض من دغلها زكى ما ينبت فيها ونما. قال يحيى بن معاذ: كم من مستغفر ممقوت وساكت مرحوم، هذا استغفر وقلبه فاجر، وهذا سكت وقلبه ذاكر. وقال غيره: ليس الشأن فيمن يقوم الليل إنما الشأن فيمن ينام على فراشه ثم يصبح وقد سبق الركب، من سار على طريق الرسول ﷺ ومنهاجه وإن اقتصد فإنه يسبق من سار على غير طريقه وإن اجتهد.

من لي بمثل ... تمشي رويدا

والمقصود أن هذا الباهلي لما رآه النبي ﷺ وقد أنهكه الصوم وغير هيئته وأضر به في جسده أمره أولا: أن يقتصر على صيام شهر الصبر، وهو شهر رمضان فإنه الشهر الذي افترض الله صيامه على المسلمين، واكتفى منهم بصيامه من السنة كلها، وصيامه كفارة لما بين الرمضانين إذا اجتنبت الكبائر، فطلب منه الباهلي أن يزيده من الصيام، ويأمره بالتطوع، وأخبره أنه يجد قوة على الصيام فقال له: (صم يوما من الشهر. فاستزاده وقال: إني أجد قوة. فقال: صم يومين من الشهر. فاستزاده وقال: إني أجد قوة فقال: صم ثلاثة أيام من الشهر. قال: وألحّ عند الثالثة. فما كاد يعني ما كاد يزيده على الثلاثة أيام من الشهر) وهكذا قال لعبد الله بن عمرو بن العاص أيضا، ففي صحيح مسلم عنه أن النبي ﷺ قال له: (صم يوما من الشهر ولك أجر ما بقي قال: إني أطيق أكثر من ذلك قال: صم يومين ولك أجر ما بقي. قال: إني أطيق أكثر

من ذلك. قال: صم ثلاثة أيام ولك أجر ما بقي) ففي هذا: أن صيام ثلاثة أيام من الشهر يحصل به أجر صيام الشهر كله، وكذلك صيام يومين منه، ووجه ذلك أن الصيام يضاعف ما لا يضاعف غيره من الأعمال، وقد سبق ذكر ذلك عند الكلام على حديث: (كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله عز وجل: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به) فالصيام لا يعلم منتهى مضاعفته إلا الله عز وجل، وكلما قوي الإخلاص فيه وإخفاؤه وتنزيهه من المحرمات والمكروهات كثرت مضاعفته، فلا يستنكر أن يصوم الرجل يوما من الشهر فيضاعف له بثواب ثلاثين يوما فيكتب له صيام الشهر كله، وكذلك إذا صام يومين من الشهر، وأما إذا صام منه ثلاثة أيام فهو ظاهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها.

وخرج الترمذي والنسائي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من صام كل شهر ثلاثة أيام كان كمن صام الدهر) فأنزل الله عز وجل تصديق ذلك: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) اليوم بعشرة أيام. وفي (الصحيحين)عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (صم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر) وفي رواية فيهما أيضا: (إن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله) وفي المسند عن قرة المزني عن النبي ﷺ قال: (صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر وإفطاره) يعني صيامه في مضاعفة الله وإفطاره في رخصة الله، كما كان أبوهريرة رضي الله عنه وأبوذر يقولان ذلك، وكانا يصومان ثلاثة أيام من كل شهر، ويقولان في سائر أيام الشهر: نحن صيام، ويتأولان أنهما صيام في مضاعفة الله وهما مفطران في رخصة الله. وقد وصى النبي ﷺ جماعة من أصحابه بصيام ثلاثة أيام من كل شهر منهم: أبوهريرة رضي الله عنه وأبوالدرداء وأبوذر

وغيرهم. وفي المسند أن النبي قال في صيام ثلاثة أيام من كل شهر: (هو صوم حسن) وفيه أيضا عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله يقول: (صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، ويذهب مغلة الصدر قلت: وما مغلة الصدر ؟ قال: رجس الشيطان). وفيه أيضا عن رجل عن النبي قال: (صيام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن كثيرا من وحر الصدر) وفي غير هذه الرواية: (وغر الصدر) وهما بمعنى واحد يقال: وحر صدره ووغر: إذا كان فيه غل وغش. وقيل: الوحر الغل والوغر الغيظ، وقد كان النبي يتحرى صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وكذلك كان إبراهيم عليه السلام كما خرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعا: (صيام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر) وفي السنن عن حفصة رضي الله عنها: (أن النبي كان يصوم العشر وعاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر) وفي إسناده اختلاف. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر) قيل لها من أيه كان يصوم ؟ قالت: كان لا يبالي من أيه صام. ففي هذا الحديث أنه لم يكن يبالي من أي الشهر صام الأيام الثلاثة،وقد روي في صفة صيام النبي للأيام الثلاثة من الشهر أنواع أخر:

أحدها: ما خرجه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله يصوم من الشهر السبت والأحد والاثنين، ومن الشهر الآخر الثلاثاء والأربعاء والخميس) وقال حديث حسن. وذكر أن بعضهم رواه موقوفا يعني من قول عائشة رضي الله عنها غير مرفوع.

الثاني: ما خرجه أبوداود وغيره من حديث حفصة: (أن النبي كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر الاثنين والخميس، والاثنين من الجمعة

الأخرى) فعلى هذه الرواية كان النبي يجعلها من أول الشهر ولا يوالي بينها، بل كان يتحرى بها يوم الاثنين مرتين والخميس مرة.

الثالث: عكس الثاني خرجه النسائي من حديث حفصة أيضا: (أن النبي كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، أول اثنين من الشهر ثم الخميس ثم الخميس الذي يليه) وفي رواية له أيضا: (أول اثنين من الشهر وخميسين) وخرج أبوداود من حديث أم سلمة عن النبي معنى ذلك، وفي رواية في المسند: (الاثنين والجمعة والخميس) وكأنها غير محفوظة، فإن كانت محفوظة فهي نوع رابع.

والنوع الخامس: ما خرجه أبوداود والنسائي والترمذي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (أن النبي كان يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام) وحسنه الترمذي، وذكر أن بعضهم لم يرفعه يعني وقفه على ابن مسعود، وظاهر هذا أنه كان يوالي بين الأيام الثلاثة من أول كل شهر.

والنوع السادس: أنه كان يصوم أيام البيض فخرج النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي كان لا يدع صيام أيام البيض في حضر ولا سفر).

وخرج الترمذي والنسائي (عن أبي ذر رضي الله عنه: أن النبي أمره بصيام أيام البيض: ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة) وفي السنن الأربعة خلا الترمذي عن قتادة بن ملحان عن النبي نحوه وخرج النسائي من حديث جابر البجلي عن النبي نحوه أيضا. وقد روي عن الحسن: أنه كان يصوم خمسة أيام من أول الشهر ويقول: ما يدريني لعلي لا أدرك البيض. وفي كتاب مناقب الحسن لأبي حيان التوحيدي: أن رجلا سأل الحسن لأي شيء استحب صيام الأيام البيض ؟ فلم يدر ما يقول. فقال أعرابي عنده: لأن القمر ينكسف في لياليهن، فيكون الناس عند حدوث الآيات على عبادة، فقال الحسن: خذوها من غير فقيه.

وفي حديث الباهلي أنه قال للنبي بعد ذلك: إني أجد قوة، وإني أحب أن تزيدني. فقال له: (فمن الحرم وأفطر) وفي رواية: (صم الحرم وأفطر) وفي رواية قال: (صم الأشهر الحرم) فهذا دليل على فضل صيام الأشهر الحرم الأربعة التي ذكرها الله تعالى في كتابه بقوله: (منها أربعة حرم)، وقد فسرها النبي في حديث أبي بكرة ـ (بأنها ثلاثة متواليات: ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم وشهر رجب) وقد ذكرناه في وظيفة شهر رجب، وذكرنا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العمل الصالح والأجر في هذه الحرم أعظم، وذكرنا في وظائف المحرم قول النبي : (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرم).

وسيأتي في وظائف ذي الحجة ذكر فضل صيام عشر ذي الحجة إن شاء الله، وقد كان كثير من السلف يصوم الأشهر الحرم كلها. روي ذلك عن ابن عمر والحسن البصري وأبي إسحاق السبيعي. وقال سفيان الثوري: الأشهر الحرم أحب إليّ أن يصام منها. وروى خلاد الصفار عن أبي مسلم قال: صيام يوم من أشهر الحج أو قال أشهر الحرم يعدل شهرا، وصيام يوم من غير الأشهر الحرم يعدل عشرا. وروي عن النخعي نحوه لكنه قال: من المحرم، فيحتمل أنه أراد جنس الأشهر المحرمة. وروي معناه مرفوعا من حديث أنس وإسناده ضعيف جدا، ويروى بإسناد مجهول عن أنس مرفوعا: (من صام من شهر حرام الخميس والسبت كتب الله له عبادة تسعمائة سنة) وقال كعب: اختار الله الزمان فأحبه إليه الأشهر الحرم. ويروى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا ولا يصحّ. وعن قيس بن عبادة أنه قال: ليس في الأشهر الحرم شهر إلا في اليوم العاشر منه خير. قال: ففي الحجة في العاشر النحر يوم الحج الأكبر، وفي المحرم العاشر عاشوراء، وفي العاشر من رجب (يمحو الله ما يشاء ويثبت). قال الراوي: ونسيت ما قال في ذي القعدة. وقد تقدم في ذكر

وظيفة رجب أنه روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه ذكر من عجائب الدنيا بأرض عاد عمود من نحاس عليه شجرة من نحاس، فإذا كان في الأشهر الحرم قطر منها الماء، فملؤوا منه حياضهم وسقوا مواشيهم وزروعهم، فإذا ذهبت الأشهر الحرم انقطع الماء.

وذوالقعدة من الشهر الحرم بغير خلاف، وهو أول الأشهر الحرم المتوالية، وهل هو أول الحرم مطلقا أم لا ؟ فيه خلاف ذكرناه في وظيفة رجب، وهو أيضا من أشهر الحج التي قال الله تعالى فيها: (الحج أشهر معلومات). وقيل: إن تحريم ذي القعدة كان في الجاهلية لأجل السير إلى الحج، وسمي ذا القعدة لقعودهم فيه عن القتال، وتحريم المحرم لرجوع الناس فيه من الحج إلى بلادهم، وتحريم ذي الحجة لوقوع حجهم فيه، وتحريم رجب كان للاعتمار فيه من البلاد القريبة، ومن خصائص ذي القعدة أن عمر النبي كلها كانت في ذي القعدة سوى عمرته التي قرنها بحجته مع أنه أحرم بها أيضا في ذي القعدة، وفعلها في ذي الحجة مع حجته، وكانت عمره أربعا: عمرة الحديبية ولم يتمها بل تحلل منها ورجع، وعمرة القضاء من قابل، وعمرة الجعرانة عام الفتح لما قسم غنائم حنين. وقيل: إنها كانت في آخر شوال، والمشهور أنها كانت في ذي القعدة، وعليه الجمهور، وعمرته في حجة الوداع كما دلت عليه النصوص الصحيحة، وعليه جمهور العلماء أيضا. وقد روي عن طائفة من السلف منهم ابن عمر وعائشة وعطاء تفضيل عمرة ذي القعدة وشوال على عمرة رمضان، لأن النبي اعتمر في ذي القعدة وفي أشهر الحج، حيث يجب عليه الهدي إذا حج من عامه لأن الهدي زيادة نسك، فيجتمع نسك العمرة مع نسك الهدي، ولذي القعدة فضيلة أخرى وهي أنه قد قيل: إنه الثلاثون يوما الذي واعد الله فيه موسى عليه السلام. قال ليث عن مجاهد في قوله تعالى: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) قال ذوالقعدة

(وأتممناها بعشر) قال عشر ذي الحجة.

يا من لا يقلع عن ارتكاب الحرام لا في شهر حلال ولا في شهر حرام! يا من هو في الطاعات إلى وراء وفي المعاصي إلى قدام! يا من هو في كل يوم من عمره شرا مما كان في قبله من الأيام! متى تستفيق من هذا المنام؟ متى تتوب من هذا الإجرام؟ يا من أنذره الشيب بالموت وهو مقيم على الآثام! أما كفاك واعظ الشيب مع واعظ القرآن والإسلام؟ الموت خير لك من الحياة على هذه الحال والسلام.

يا غاديا في غفلة إلى متى
وكم إلى كم لا يستنطق اللّه به
واعجبا منك وأنت كيف تجنبت
وكيف ترضى أن يوم يفوز من

وظائف شهر ذي الحجة

ويشتمل على مجالس ـ المجلس الأول في فضل عشر ذي الحجة

خرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي قال: (ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام، يعني أيام العشر. قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء).

الكلام في فضل عشر ذي الحجة في فصلين: في فضل العمل فيه وعليه دل هذا الحديث، وفي فضله في نفسه.

الفصل الأول: في فضل العمل فيه

وقد دل هذا الحديث على أن العمل في أيامه أحب إلى الله من العمل في أيام الدنيا من غير استثناء شيء منها، وإذا كان أحبّ إلى الله فهو أفضل عنده، وقد ورد هذا الحديث بلفظ: (ما من أيام العمل فيها أفضل من أيام العشر) وروي بالشك في لفظه: (أحب أو أفضل).

وإذا كان العمل في أيام العشر أفضل وأحبّ إلى الله من العمل في غيره من أيام السنة كلها

صار العمل فيه وإن كان مفضولا أفضل من العمل في غيره، وإن كان فاضلا ولهذا قالوا: يا رسول الله! ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجهاد) ثم استثنى جهادا واحدا هو أفضل الجهاد فإنه سئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: (من عقر جواده وأهريق دمه، وصاحبه أفضل الناس درجة عند الله) سمع النبي رجلا يدعو يقول: اللهم أعطني أفضل ما تعطي عبادك الصالحين. قال: (إذن يعقر جوادك وتستشهد). فهذا الجهاد بخصوصه يفضل على العمل في العشر، وأما بقية أنواع الجهاد فإن العمل في عشر ذي الحجة أفضل وأحبّ إلى الله عز وجل منها، وكذلك سائر الأعمال، وهذا يدل على أن العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره، وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (هذا زيادة والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة) وفي إسنادها ضعف، وقد ورد في قدر المضاعفة روايات متعددة مختلفة، فخرج الترمذي وابن ماجه من رواية النهاس بن قهم عن قتادة عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من عشر ذي الحجة، يعدل صيام كل يوم منها بسنة، وكل ليلة منها بقيام ليلة القدر) والنهاس بن قهم ضعفوه. وذكر الترمذي عن البخاري أن الحديث يروى عن قتادة عن سعيد مرسلا. وروى ثوير بن أبي فاخته ـ وفيه ضعف ـ عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ليس يوم أعظم عند الله من يوم الجمعة ليس العشر، فإن العمل فيها يعدل عمل سنة. وروى أبو عمر والنيسابوري في كتاب الحكايات بإسناده عن حميد قال: سمعت ابن سيرين وقتادة يقولان: صوم كل يوم من العشر يعدل سنة. وقد روي في المضاعفة أكثر من ذلك، فروى هارون بن موسى النحوي قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك قال: كان يقال في أيام العشر: بكل يوم ألف يوم، ويوم عرفة عشرة

آلاف. قال الحاكم: هذا من المسانيد التي لا يذكر سندها عن رسول الله ، وروى في المضاعفة أقل من سنة. قال حميد بن زنجويه: حدثنا يحيى بن عبد الله الحراني حدثنا أبوبكر بن أبي مريم عن راشد بن سعد أن رسول الله قال: (صيام كل يوم من أيام من أيام العشر كصيام شهر) وهذا مرسل ضعيف الإسناد، وروى عبد الرزاق في كتابه عن جعفر عن هشام عن الحسن قال: صيام يوم العشر يعدل شهرين. وقال عبد الكريم عن مجاهد: العمل في العشر يضاعف. وفي المضاعفة أحاديث أخر مرفوعة لكنها موضوعة، فلذلك أعرضنا عنها وعما أشبهها من الموضوعات في فضائل العشر وهي كثيرة.

وقد دل حديث ابن عباس على مضاعفة جميع الأعمال الصالحة في العشر من غير استثناء شيء منها، وقد روي في خصوص صيام أيامه وقيام لياليه وكثرة الذكر فيه ما يذكر مما يحسن ذكره دون ما لا يحسن لعدم صحته. وقد سبق حديث أبي هريرة في ذلك، ومرسل راشد بن سعد، وما روي عن الحسن وابن سيرين وقتادة في صومه، وفي المسند والسنن عن حفصة: (أن النبي كان لا يدع صيام عاشوراء والعشر وثلاثة أيام من كل شهر) وفي إسناده اختلاف. وروي عن بعض أزواج النبي : (أن النبي كان لا يدع صيام تسع ذي الحجة) وممن كان يصوم العشر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقد تقدم عن الحسن وابن سيرين وقتادة ذكر فضل صيامه. وهو قول أكثر العلماء أو كثير منهم.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما رأيت رسول الله صائما العشر قط) وفي رواية في العشر قط، وقد اختلف جواب الإمام أحمد عن هذا الحديث، فأجاب مرة بأنه قد روى خلافه وذكر حديث حفصة وأشار إلى أنه اختلف في إسناد حديث عائشة، فأسنده الأعمش

ورواه منصور عن إبراهيم مرسلا، وكذلك أجاب غيره من العلماء بأنه إذا اختلفت عائشة وحفصة في النفي والإثبات أخذ بقول المثبت، لأن معه علم خفي على النافي. وأجاب أحمد مرة أخرى بأن عائشة أرادت أنه لم يصم العشر كاملا، يعني وحفصة أرادت أنه كان يصوم غالبه، فينبغي أن يصام بعضه ويفطر بعضه. وهذا الجمع يصح في رواية من روى: ما رأيته صائما العشر، وأما من روى: ما رأيته صائما في العشر فيبعد أو يتعذر هذا الجمع فيه، وكان ابن سيرين يكره أن يقال: صام العشر لأنه يوهم دخول يوم النحر فيه، وإنما يقال: صام التسع، ولكن الصيام إذا أضيف إلى العشر. فالمراد صيام ما يجوز صومه منه، وقد سبق حديث: (أن النبي كان يصوم العشر) ولو نذر صيام العشر فينبغي أن ينصرف إلى التسع أيضا، فلا يلزم بفطر يوم النحر قضاء ولا كفارة، فإنه غلب استعماله عرفا في التسع، ويحتمل أن يخرج في لزوم القضاء والكفارة خلاف، فإن أحمد قال فيمن نذر صوم شوال فأفطر يوم الفطر وصام باقيه: أنه يلزمه قضاء يوم وكفارة. وقال القاضي أبويعلى: هذا إذا نوى صوم جميعه، فأما إن أطلق لم يلزمه شيء، لأنه يوم الفطر مستثنى شرعا. وهذه قاعدة من قواعد الفقه وهي: أن العموم هل يخص بالشرع أم لا ؟ ففي المسألة خلاف مشهور.

وأما قيام ليالي العشر فمستحب، وقد سبق الحديث في ذلك وقد ورد في خصوص إحياء ليلتي العيدين أحاديث لا تصح، وورد إجابة الدعاء فيهما واستحبه الشافعي وغيره من العلماء، وكان سعيد بن جبير وهو الذي روى هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا دخل العشر اجتهد اجتهادا حتى ما يكاد يقدر عليه، وروي عنه أنه قال: لا تطفئوا سرجكم ليالي العشر تعجبه العبادة.

وأما استحباب الإكثار من الذكر فيها فقد دل عليه قول الله عز وجل: (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) فإن الأيام المعلومات هي أيام

العشر عند جمهور العلماء، وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى. وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي قال: (ما من أيام أعظم ولا أحب إليه العمل فيهن عند الله من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد) فإن قيل: فإذا كان العمل في أيام العشر أفضل من العمل في غيرها ؟ وإن كان ذلك العمل أفضل في نفسه مما عمل في العشر لفضيلة العشر في نفسه ؟ فيصير العمل المفضول فيه فاضلا حتى يفضل على الجهاد الذي هو أفضل الأعمال كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وهو قول الإمام أحمد وغيره من العلماء. فينبغي أن يكون الحج أفضل من الجهاد، لأن الحج مخصوص بالعشر، وهو من أفضل ما عمل في العشر أو أفضل ما عمل فيه ؟ فكيف كان الجهاد أفضل من الحج ؟ فإنه ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل ؟ قال: (إيمان بالله ورسوله) قال: ثم ماذا ؟ قال: (جهاد في سبيل الله) قال: ثم ماذا ؟ قال: (حج مبرور).

قيل التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بالحج عند جمهور العلماء وقد نص عليه الإمام أحمد، وهو مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وروي فيه أحاديث مرفوعة في أسانيدها مقال، وحديث أبي هريرة هذا صريح في ذلك، ويمكن الجمع بينه وبين حديث ابن عباس بوجهين:

أحدهما: أن حديث ابن عباس قد صرح فيه بأن جهاد من لا يرجع من نفسه وماله بشيء يفضل على العمل في العشر، فيمكن أن يقال: الحج أفضل من الجهاد إلا جهاد من لم يرجع من نفسه بشيء، ويكون هو المراد من حديث أبي هريرة، ويجتمع حينئذ الحديثان.

والثاني: وهو الأظهر: أن العمل المفضول قد يقترن به ما يصير أفضل من الفاضل في نفسه كما تقدم، وحينئذ فقد يقترن بالحج ما يصير به أفضل

من الجهاد، وقد يتجرد عن ذلك، فيكون الجهاد حينئذ أفضل منه، فإن كان الحج مفروضا فهو أفضل من التطوع بالجهاد، فإن فروض الأعيان أفضل من فروض الكفايات عند جمهور العلماء. وقد روي هذا في الحج والجهاد بخصوصهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص وروي مرفوعا من وجوه متعددة في أسانيدها لين، وقد دل على ذلك ما حكاه النبي عن ربه عز وجل أنه قال: (ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه) وإن كان الحاج ليس من أهل الجهاد، فحجه أفضل من جهاده كالمرأة، وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت: (يا رسول الله! ترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ فقال: أفضل الجهاد حج مبرور) وفي رواية له: (جهادكن الحج) وفي رواية له: (نعم الجهاد الحج) وكذلك إذا استغرق العشر كله عمل الحج، وأتى به على أكمل وجوه البر من أداء الواجبات واجتناب المحرمات، وانضم إلى ذلك الإحسان إلى الناس ببذل السلام وإطعام الطعام، وضم إليه كثرة ذكر الله عز وجل والعج والثج وهو رفع الصوت بالتلبية، وسوق الهدي فإن هذا الحج على هذا الوجه قد يفضل على الجهاد، وإن وقع عمل الحج في جزء يسير من العشر، ولم يؤت به على الوجه المبرور فالجهاد أفضل منه. وقد روي عن عمر وابن عمر وأبي موسى الأشعري ومجاهد ما يدل على تفضيل الحج على الجهاد وسائر الأعمال، وينبغي حمله على الحج المبرور الذي كمل بره، واستوعب فعله أيام العشر والله أعلم.

فإن قيل: قوله : (ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحب إلى الله من هذه الأيام) هل يقتضي تفضيل كل عمل صالح وقع في شيء من أيام العشر على جميع ما يقع في غيرها وإن طالت مدته أم لا ؟ قيل: الظاهر والله أعلم أن المراد أن العمل في هذه الأيام العشر أفضل من العمل في أيام عشر غيرها، فكل عمل صالح يقع في هذا العشر فهو أفضل من عمل في عشرة أيام سواها من أي

شهر كان، فيكون تفضيلا للعمل في كل يوم منه على العمل في كل يوم من أيام السنة غيره. وقد قيل: إنما يفضل العمل فيها على الجهاد إذا كان العمل فيها مستغرقا لأيام العشر فيفضل على جهاد في عدد تلك الأيام من غير العشر، وإن كان العمل مستغرقا لبعض أيام العشر فهو أفضل من جهاد في نظير ذلك الزمان من غير العشر. واستدل على ذلك بأن النبي جعل العمل الدائم الذي لا يفتر من صيام وصلاة معادلا للجهاد في أي وقت كان، فإذا وقع ذلك العمل الدائم في العشر كان أفضل من الجهاد في مثل أيامه لفضل العشر وشرفه. ففي (الصحيحين)عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد ؟ قال: أجده. قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر) قال: ومن يستطيع ذلك؟. ولفظه للبخاري ولمسلم معناه وزاد ثم قال: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله) وللبخاري: (مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم) وللنسائي: (كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد) ويدل على أن المراد تفضيله على جهاد في مثل أيامه خاصة ما في صحيح ابن حبان عن جابر عن النبي قال: (ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة. فقال رجل: يا رسول الله! هو أفضل أم عدتهن جهادا في سبيل الله ؟ قال: هو أفضل من عدتهن جهادا في سبيل الله) فلم يفضل العمل في العشر إلا على الجهاد في عدة أيام العشر لا مطلقا.

وأما ما تقدم من أن كل يوم منه يعدل سنة أو شهرين أو ألف يوم فكلها من أحاديث الفضائل، وليست بقوية، ثم إن أكثر ما ورد ذلك في صيامها، والصيام له خصوصية في المضاعفة، فإنه لله والله يجزي به.

فإن قيل: إنه لا يختص بالصوم بل يعم سائر الأعمال، فإنما يدل على تفضيل كل عمل في العشر على مثل ذلك العمل في غيره سنة، فلا يدخل فيه إلا تفضيل من جاهد في العشر على من جاهد في غيرها سنة، وإذا قيل يلزم من تفضيل العمل في هذا العشر على كل عشر غيره أن يكون صيام هذا العشر أفضل من صوم عشر رمضان، وقيام لياليه أفضل من قيام لياليه ؟ قيل: أما صيام رمضان فأفضل من صيامه بلا شك، فإن صوم الفرض أفضل من النفل بلا تردد، وحينئذ فيكون المراد أن ما فعل في العشر في فرض فهو أفضل مما فعل في عشر غيره من فرض، فقد تضاعف صلواته المكتوبة على صلوات عشر رمضان، وما فعل فيه من نفل فهو أفضل مما فعل في غيره من نفل، وقد اختلف عمر وعلي رضي الله عنهما في قضاء رمضان في عشر ذي الحجة، فكان عمر يحتسبه أفضل أيامه فيكون قضاء رمضان فيه أفضل من غيره، وهذا يدل على مضاعفة الفرض فيه على النفل، وكان علي ينهى عنه.

وعن أحمد في ذلك روايتان وقد علل قول علي: بأن القضاء فيه يفوت به فضل صيامه تطوعا، وبهذا علله الإمام أحمد وغيره، وقد قيل: إنه يحصل به فضيلة صيام التطوع، وهذا على قول من يقول: إن نذر صيام شهر فصام رمضان أيضا أجزأه عن نذره فيه، ونذره متوجه، وقد علل بغير ذلك، وأما قيام لياليه وتفضيل قيامه على قيام عشر رمضان فيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني:
في فضل عشر ذي الحجة على غيره من أعشار الشهور

قد سبق حديث ابن عمر المرفوع: (ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر) وفي صحيح ابن حيان عن جابر عن النبي قال: (ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة) وقد تقدم ورويناه من وجه آخر

بزيادة وهي: (ولا ليالي أفضل من ليالهين قيل: يا رسول الله! هي أفضل من عدتهن جهادا في سبيل الله ؟ قال: هي أفضل من عدتهن جهادا في سبيل الله إلا من عفر وجهه تعفيرا، وما من يوم أفضل من يوم عرفة) خرجه الحافظ أبوموسى المديني من جهة أبي نعيم الحافظ بالإسناد الذي خرجه به ابن حبان، وخرج البزار وغيره من حديث جابر أيضا عن النبي قال: (أفضل أيام الدنيا أيام العشر قالوا: يا رسول الله ولا مثلهن في سبيل الله ؟ قال: ولا مثلهن في سبيل الله إلا من عفر وجهه بالتراب) وروي مرسلا. وقيل: إنه أصحّ، وقد سبق ما روي عن ابن عمر قال: ليس يوم أعظم عند الله من يوم الجمعة ليس العشر، ويدل على أن أيام العشر أفضل من أيام الجمعة الذي هو أفضل الأيام. وقال سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن كعب قال: اختار الله الزمان، وأحب الزمان إلى الله الأشهر الحرم، وأحب الأشهر الحرم إلى الله ذوالحجة، وأحب ذي الحجة إلى الله العشر الأول. ورواه بعضهم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة ورفعه ولا يصحّ ذلك. وقال مسروق في قوله تعالى: (وليال عشر) هي أفضل أيام السنة خرجه عبد الرزاق وغيره. وأيضا فأيام هذا العشر يشتمل على يوم عرفة، وقد روي أنه أفضل أيام الدنيا كما جاء في حديث جابر الذي ذكرناه، وفيه يوم النحر وفي حديث عبد الله بن قرط عن النبي أنه قال: (أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم النفر) خرجه الإمام أحمد وأبوداود وغيرهما. وهذا كله يدل على أن عشر ذي الحجة أفضل من غيره من الأيام من غير استثناء هذا في أيامه.

فأما لياليه فمن المتأخرين من زعم أن ليالي عشر رمضان أفضل من لياليه لاشتمالها على ليلة القدر، وهذا بعيد جدا. واحتج بعضهم بحديث عائشة فيمن أرسل بهديه مع غيره وأقام في بلده، وكان ابن عمر إذا ضحى يوم النحر حلق رأسه. ونص أحمد على ذلك. واختلف العلماء في التعريف بالأمصار

عشية عرفة. وكان الإمام أحمد لا يفعله ولا ينكر على من فعله، لأنه روي عن ابن عباس وغيره من الصحابة، وأما مشاركتهم لهم في الذاكرة في الأيام المعلومات فإنه يشرع للناس كلهم الإكثار من ذكر الله في أيام العشر خصوصا، وقد سبق حديث ابن عمر المرفوع: (فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد)

واختلف العلماء هل يشرع إظهار التكبير والجهر به في الأسواق في العشر ؟ فأنكره طائفة، واستحبه أحمد والشافعي، لكن الشافعي خصه بحال رؤية بهيمة الأنعام، وأحمد يستحبه مطلقا. وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عمر وأبي هريرة أنهما كانا يخرجان إلى السوق في العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. ورواه عفان. حدثنا سلام أبوالمنذر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال كان أبي هريرة وابن عمر يأتيان السوق أيام العشر فيكبران ويكبر الناس معهما، ولا يأتيان لشيء إلا لذلك. وروى جعفر الفريابي في كتاب العيدين: حدثنا إسحاق بن راهويه أخبرنا جرير عن يزيد بن أبي زياد قال رأيت سعيد بن جبير ومجاهدا وعبد الرحمن بن أبي ليلى أو اثنين من هؤلاء الثلاثة، وما رأينا من فقهاء الناس يقولون في أيام العشر: الله أكبر، الله أكب،ر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

لما كان الله سبحانه وتعالى قد وضع في نفوس المؤمنين حنينا إلى مشاهدة بيته الحرام، وليس كل أحد قادرا على مشاهدته في كل عام فرض على المستطيع الحج مرة واحدة في عمره، وجعل موسم العشر مشتركا بين السائرين والقاعدين، فمن عجز عن الحج في عام قدر في العشر على عمل يعمله في بيته يكون أفضل من الجهاد الذي هو أفضل من الحج.

ليالي العشر   فبادر رغبة تلحق
ألا لا وقت للعمال   ثواب الخير أقرب
من أوقات الليالي   فشمر واطلبن

احذروا المعاصي فإنها تحرم المغفرة في مواسم الرحمة، وروى المروذي في كتاب الورع بإسناده عن عبد الملك بن عمير عن رجل - إما من الصحابة أو من التابعين -: أن آتيا أتاه في منامه في العشر من ذي الحجة فقال: ما من مسلم إلا يغفر له في هذه الأيام، كل يوم خمس مرارا إلا أصحاب الشاء يقولون: مات، ما موته يعني أصحاب الشطرنج فإذا كان اللعب بالشطرنج مانعا من المغفرة فما الظن بالإصرار على الكبائر المجمع عليها.

طاعة الله خير ما د فكن طائعا ولا
ما هلاك النفوس فاجتنب ما نهاك لا
إن شيئا هلاك ينبغي أن تصون

المعاصي سبب البعد والطرد كما أن الطاعات أسباب القرب والود.

أيضمن لي فتى وأرهنه الكفالة
أطاع الله قوم ولم يتجرعوا

إخوانكم في هذه الأيام قد عقدوا الإحرام، وقصدوا البيت الحرام، وملؤوا الفضاء بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد والإعظام، لقد ساروا وقعدنا، وقربوا وبعدنا، فإن كان لنا معهم نصيب سعدنا.

أتراكم في النقا أهل سلع تذكرونا
انقطعنا ووصلتم واشكروا المنعم يا
قد خسرنا وربحتم بفضول الريح من
سار قلبي خلف غير أن العذر عاق
ما قطعتم واديا إلا جئته أسعى بأقدام
أنا مذ غبتم على أترى عندكموما

القاعد لعذر شريك للسائر، وربما سبق السائر بقلبه السائرين بأبدانهم. رأى بعضهم في المنام عشية عرفة في الموقف قائلا يقول له: أترى هذا الزحام على هذا الموقف، فإنه لم يحج منهم أحد إلا رجل تخلف عن الموقف فحج بهمته فوهب له أهل الموقف.

يا سائرين إلى لقد سرتم جسوما
إنا أقمنا على عذر ومن أقام على

الغنيمة! الغنيمة! بانتهاز الفرصة في هذه الأيام العظيمة، فما منها عوض ولا لها قيمة. المبادرة! المبادرة! بالعمل، والعجل! العجل! قبل هجوم الأجل، قبل أن يندم المفرط على ما فعل، قبل أن يسأل الرجعة فيعمل صالحا فلا يجاب إلى ما سأل، قبل أن يحول الموت بين المؤمل وبلوغ الأمل، قبل أن يصير المرء مرتهنا في حفرته بما قدم من عمل.

ليس للميت في فطر ولا أضحى
ناء عن الأهل على كذاك من مسكنه

يا من طلع فجر شيبه بعد بلوغ الأربعين! يا من مضى عليه بعد ذلك ليالي عشر سنين حتى بلغ الخمسين! يا من هو في معترك المنايا ما بين الستين والسبعين! ما تنتظر بعد هذا الخبر إلا أن يأتيك اليقين! يا من ذنوبه بعدد الشفع والوتر! أما تستحي من الكرام الكاتبين ؟ أم أنت ممن يكذب بيوم الدين ؟ يا من ظلمة قلبه كالليل إذا يسري! أما آن لقلبك أن يستنير أو يلين؟ تعرض لنفحات مولاك في هذا العشر، فإن فيه لله نفحات يصيب بها من يشاء، فمن أصابته سعد بها آخر الدهر.

المجلس الثاني

في يوم عرفة مع عيد النحر

في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا فقال: أي آية: قال: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت ورسول الله قائم بعرفة يوم الجمعة. وخرج الترمذي عن ابن عباس نحوه وقال فيه: نزلت في يوم عيد من يوم جمعة، ويوم عرفة والعيد هو موسم الفرح والسرور، وأفراح المؤمنين وسرورهم في الدنيا إنما هو

بمولاهم إذا فازوا بإكمال طاعته، وحازوا ثواب أعمالهم، بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضله ومغفرته كما قال تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) قال بعض العارفين: ما فرح أحد بغير الله إلا بغفلته عن الله، فالغافل يفرح بلهوه وهواه، والعاقل يفرح بمولاه، وأنشد سمنون في هذا المعنى:

وكان فؤادي خاليا وكان بذكر الخلق
فلما دعا قلبي هواك فلست أراه عن
رميت ببعد منك إن وإن كنت في
وإن كان شيء في إذا غبت عن عيني
فإن شئت واصلني فلست أرى قلبي

لما قدم النبي المدينة كان لهم يومان يلعبون فيهما فقال: (إن الله قد أبدلكم يومين خيرا منهما، يوم الفطر والأضحى) فأبدل الله هذه الأمة بيومي اللعب واللهو، يومي الذكر والشكر والمغفرة والعفو. ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعياد، عيد يتكرر فهو يوم الجمعة وهو عيد الأسبوع، وهو مترتب على إكمال الصلوات المكتوبات، فإن الله عز وجل فرض على المؤمنين في كل يوم وليلة خمس صلوات، وأيام الدنيا تدور على سبعة أيام، فكلما دور أسبوع من أيام الدنيا واستكمل المسلمون صلواتهم فيه شرع لهم في يوم استكمالهم، وهو اليوم الذي كمل فيه الخلق، وفيه خلق آدم وأدخل الجنة وأخرج منها، وفيه ينتهي أمد الدنيا، فتزول وتقوم الساعة، فالجمعة من الاجتماع على سماع الذكر والموعظة وصلاة الجمعة، وجعل ذلك لهم عيدا. ولهذا نهى عن إفراده بالصيام، وفي شهود الجمعة شبه من الحج. وروي: أنها حج المساكين. وقال سعيد بن المسيب: شهود الجمعة أحبّ إليّ من حجة نافلة، والتبكير إليها يقوم مقام الهدي على قدر السبق، فأولهم كالمهدي بدنة، ثم بقرة، ثم كبشا، ثم دجاجة، ثم بيضة. وشهود الجمعة يوجب تكفير الذنوب إلى الجمعة الأخرى إذا سلم ما

بين الجمعتين من الكبائر، كما أن الحج المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجة الأخرى، وقد روي إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام، وروي أن الله تعالى يغفر يوم الجمعة لكل مسلم، وفي الحديث الصحيح عن النبي أنه قال: (ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة) وفي المسند عنه أنه قال في يوم الجمعة: (هو أفضل عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى) فهذا عيد الأسبوع وهو متعلق بإكمال الصلوات المكتوبة، وهي أعظم أركان الإسلام ومبانيه بعد الشهادتين.

وأما العيدان اللذان لا يتكرران في كل عام وإنما يأتي كل واحد منهما في العام مرة واحدة.

فأحدهما: عيد الفطر من صوم رمضان، وهو مترتب على إكمال صيام رمضان، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا استكمل المسلمون صيام شهرهم المفروض عليهم، واستوجبوا من الله المغفرة والعتق من النار، فإن صيامه يوجب مغفرة ما تقدم من الذنوب، وآخره عتق من النار، يعتق فيه من النار من استحقها بذنوبه، فشرع الله تعالى لهم عقب إكمالهم لصيامهم عيدا يجتمعون فيه على شكر الله وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفي الصائمون فيه أجر صيامهم، ويرجعون من عيدهم بالمغفرة.

والثاني: عيد النحر، وهو أكبر العيدين وأفضلهما وهو مترتب على إكمال الحج، وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمل المسلمون حجهم غفر لهم، وإنما يكمل الحج بيوم عرفة والوقوف بعرفة، فإنه ركن الحج الأعظم كما قال : (الحج عرفة، ويوم عرفة هو يوم العتق من النار) فيعتق الله من النار من وقف بعرفة ومن لم يقف بها من أهل الأمصار من المسلمين، فلذلك صار اليوم الذي يليه عيدا لجميع المسلمين في جميع أمصارهم، من شهد الموسم منهم ومن لم

يشهده لاشتراكهم في العتق والمغفرة يوم عرفة، وإنما لم يشترك المسلمون كلهم في الحج كل عام رحمة من الله وتخفيفا على عباده، فإنه جعل الحج فريضة العمر لا فريضة كل عام، وإنما هو في كل عام فرض كفاية، بخلاف الصيام فإنه فريضة كل عام على كل مسلم، فإذا كمل يوم عرفة وأعتق الله عباده المؤمنين من النار اشترك المسلمون كلهم في العيد عقب ذلك، وشرع للجميع التقرب إليه بالنسك وهو إراقة دماء القرابين، فأهل الموسم يرمون الجمرة فيشرعون في التحلل من إحرامهم بالحج، ويقضون تفثهم ويوفون نذورهم، ويقربون قرابينهم من الهدايا، ثم يطوفون بالبيت العتيق، وأهل الأمصار يجتمعون على ذكر الله وتكبيره والصلاة له. قال مخنف بن سليم وهو معدود من الصحابة: الخروج يوم الفطر يعدل عمرة، والخروج يوم الأضحى يعدل حجة، ثم ينسكون عقب ذلك نسكهم ويقربون قرابينهم بإراقة دماء ضحاياهم، فيكون ذلك شكرا منهم لهذه النعم، والصلاة والنحر الذي يجتمع في عيد النحر أفضل من الصلاة والصدقة الذي في عيد الفطر، لهذا أمر رسول الله أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر، أن يصلي لربه وينحر. وقيل له: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) ولهذا ورد الأمر بتلاوة هذه الآية عند ذبح الأضاحي، والأضاحي سنة إبراهيم عليه السلام ومحمد ، فإن الله شرعها لإبراهيم حين فدى ولده الذي أمره بذبحه بذبح عظيم. وفي حديث زيد بن أرقم قيل: يا رسول الله ما هذه الأضاحي قال: (سنة إبراهيم. قيل له: فما لنا بها ؟ قال: بكل شعرة حسنة. قيل: فالصوف ؟ قال: بكل شعرة من الصوف حسنة) خرجه ابن ماجه وغيره.

فهذه أعياد المسلمين في الدنيا، وكلها عند إكمال طاعة مولاهم الملك الوهاب، وحيازتهم لما وعدهم من الأجر والثواب. مر قوم براهب في دير فقالوا له: متى عيد أهل هذا الدير ؟ قال: يوم يغفر

لأهله.

ليس العيد لمن لبس الجديد، إنما العيد لمن طاعاته تزيد، ليس العيد لمن تجمل باللباس والركوب، إنما العيد لمن غفرت له الذنوب، في ليلة العيد تفرق خلق العتق والمغفرة على العبيد، فمن ناله منها شيء فله عيد وإلا فهو مطرود بعيد.كان بعض العارفين ينوح على نفسه ليلة العيد بهذه الأبيات:

بحرمة غربتي كم ألا تعطف علي ألا
سرور العيد قد عم وحزني في ازدياد
فإن كنت اقترفت فعذري في الهوى

وأنشد غيره:

للناس عشر وعيد وأنا فقير وحيد
يا غايتي ومناي قد لذّ لي ما تريد

وأنشد الشبلي:

ليس عيد المحب وانتظار الأمير
إنما العيد أن تكون ب كريما مقربا

وأنشد:

إذا ما كنت لي عيدا فما أصنع بالعيد
جرى حبك في كجري الماء في

وأنشد:

قالوا غدا العيد فقلت خلعة ساق
صبر رفقرهما قلب يرى إلفه
أحرى الملابس أن يوم التزاور في
الدهر لي مأتم إن والعيد ما كنت لي

وأما أعياد المؤمنين في الجنة فهي أيام زيارتهم لربهم عز وجل، فيزورونه ويكرمهم غاية الكرامة، ويتجلى لهم وينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا هو أحب إليهم من ذلك، وهو الزيادة التي قال الله تعالى فيها: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه.

إن يوما جامعا ذاك عيد ليس لي

كل يوم كان للمسلمين عيدا في الدنيا فإنه عيد

لهم في الجنة، يجتمعون فيه على زيارة ربهم، ويتجلى لهم فيه، ويوم الجمعة يدعى في الجنة: يوم المزيد، ويوم الفطر والأضحى يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة. وروي أنه يشارك النساء الرجال فيهما كما كن يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة فهذا لعموم أهل الجنة، فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم، كل يوم مرتين بكرة وعشيا، الخواص كانت أيام الدنيا كلها لهم أعيادا، فصارت أيامهم في الآخرة كلها أعيادا. قال الحسن: كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد. كل يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره وشكره فهو له عيد، أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها خمسة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، والحج، فأعياد عموم المسلمين في الدنيا عند إكمال دور الصلاة، وإكمال الصيام، والحج، يجتمعون عند ذلك اجتماعا عاما، فأما الزكاة فليس لها وقت معين ليتخذ عيدا، بل كل من ملك نصابا فحوله بحسب ملكه، وأما الشهادتان فإكمالهما يحصل بتحقيقهما والقيام بحقوقها، وخواص المؤمنين يجتهدون على ذلك في كل وقت، فلذلك كانت أوقاتهم كلها أعيادا لهم في الدنيا والآخرة، كما أنشد الشبلي:

عِيدي مقيم وعيد ... وِالقلب مني عن
ولِي قرينان مالي ... طَول الحنين وعين

ولما كان عيد النحر أكبر العيدين وأفضلهما ويجتمع فيه شرف المكان والزمان لأهل الموسم كانت لهم فيه معه أعياد قبله وبعده، فقبله يوم عرفة، وبعده أيام التشريق، وكل هذه الأعياد أعياد لأهل الموسم كما في حديث عقبة بن عامر عن النبي قال: (يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب) خرجه أهل السنن وصححه الترمذي. ولهذا لا يشرع لأهل الموسم صوم يوم عرفة لأنه أول أعيادهم وأكبر مجامعهم، وقد أفطره النبي بعرفة والناس ينظرون إليه. وروي أنه نهى عن صوم يوم عرفة

بعرفة. وروي عن سفيان بن عيينة: أنه سئل عن النهي عن صيام يوم عرفة بعرفة ؟ فقال: لأنهم زوار الله وأضيافه، ولا ينبغي للكريم أن يجوع أضيافه، وهذا المعنى يوجد في العيدين وأيام التشريق أيضا فإن الناس كلهم في ضيافه الله عز وجل لا سيما عيد النحر فإن الناس يأكلون من لحوم نسكهم أهل الموقف وغيرهم، وأيام التشريق الثلاثة هي أيام عيد أيضا، ولهذا بعث النبي من ينادي بمكة: (أنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل، فلا يصومن أحد) وقد يجتمع في يوم واحد عيدان كما إذا اجتمع يوم الجمعة مع يوم عرفة أو يوم النحر، فيزداد ذلك اليوم حرمة وفضلا لاجتماع عيدين فيه، وقد كان ذلك اجتمع للنبي في حجته يوم عرفة، فكان يوم الجمعة، وفيه نزلت هذه الآية: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا).

وإكمال الدين في ذلك اليوم حصل من وجوه:

منها: أن المسلمين لم يكونوا حجوا حجة الإسلام بعد فرض الحج قبل ذلك، ولا أحد منهم هذا قول أكثر العلماء أوكثير منهم، فيكمل بذلك دينهم لاستكمالهم عمل أركان الإسلام كلها.

ومنها: أن الله تعالى أعاد الحج على قواعد إبراهيم عليه السلام، ونفى الشرك وأهله، فلم يختلط بالمسلمين في ذلك الموقف منهم أحد. قال الشعبي: نزلت هذه الآية على النبي وهو واقف بعرفة حين وقف موقف إبراهيم واضمحل الشرك وهدمت منار الجاهلية، ولم يطف بالبيت عريان. وكذا قال قتادة وغيره. وقد قيل: إنه لم ينزل بعدها تحليل ولا تحريم. قاله أبوبكر بن عياش. وأما إتمام النعمة فإنما حصل بالمغفرة فلا تتم النعمة بدونها كما قال لنبيه : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) وقال تعالى في آية الوضوء: (ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم). ومن هنا استنبط محمد بن كعب القرظي بأن الوضوء يكفر الذنوب

كما وردت السنة بذلك صريحة، ويشهد له أيضا: أن النبي سمع رجلا يدعو ويقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة. فقال له: (تمام النعمة النجاة من النار ودخول الجنة) فهذه الآية تشهد لما روي في يوم عرفة أنه يوم المغفرة والعتق من النار.

يوم عرفة له فضائل متعددة

منها: أنه يوم إكمال الدين وإتمام النعمة

ومنها: أنه عيد لأهل الإسلام كما قاله عمر بن الخطاب وابن عباس، فإن ابن عباس قال: نزلت في يوم عيدين يوم الجمعة ويوم عرفة، وروي عن عمر أنه قال: وكلاهما بحمد الله لنا عيد. خرجه ابن جرير في تفسيره. ويشهد له حديث عقبة بن عامر المتقدم، لكنه عيد لأهل الموقف خاصة، ويشرع صيامه لأهل الأمصار عند جمهور العلماء، وإن خالف فيه بعض السلف.

ومنها: أنها قد قيل: إنه الشفع الذي أقسم الله به في كتابه، وأن الوتر يوم النحر. وقد روي هذا عن النبي من حديث جابر خرجه الإمام أحمد والنسائي في تفسيره. وقيل: إنه الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه فقال تعالى: (وشاهد ومشهود) وفي المسند (عن أبي هريرة مرفوعا وموقوفا: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم الجمعة) وخرجه الترمذي مرفوعا. وروي ذلك عن علي من قوله وخرج الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعا: (الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة) وعلى هذا فإذا وقع يوم عرفة في يوم الجمعة، فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهد ومشهود.

ومنها: أنه روي أنه أفضل الأيام، خرجه ابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي قال: (أفضل الأيام يوم عرفة) وذهب إلى ذلك طائفة من العلماء، ومنهم من قال: يوم النحر أفضل الأيام لحديث عبد الله بن قرط عن النبي قال: (أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم النفر) خرجه الإمام أحمد وأبوداود والنسائي وابن حبان في صحيحه. ولفظه: (أفضل الأيام).

ومنها: أنه روي عن أنس بن مالك أنه قال: كان يقال: يوم عرفة بعشرة آلاف يوم. يعني في الفضل، وقد ذكرناه في فضل العشر، وروي عن عطاء قال: من صام يوم عرفة كان له كأجر ألفي يوم.

ومنها: أنه يوم الحج الأكبر عند جماعة من السلف منهم عمر وغيره، وخالفهم آخرون وقالوا: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروي ذلك عن النبي ﷺ.

ومنها: أن صيامه كفارة سنتين، وسنذكر الحديث في ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومنها: أنه يوم مغفرة الذنوب والتجاوز عنها، والعتق من النار والمباهاة بأهل الموقف، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء ؟) وفي المسند عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (إن الله يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا) وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن الله يباهي بأهل عرفات يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا) وخرجه ابن حبان في صحيحه، وخرج فيه أيضا من حديث جابر عن النبي قال: (ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء فيقول: انظروا إلى عبادي شعثا غبرا ضاحين جاؤوا من كل فج عميق، يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، فلم ير أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة) وخرجه ابن منده في كتاب التوحيد، ولفظه: (إذا كان يوم عرفة ينزل الله إلى سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم، فتقول الملائكة: يا رب! فلان مرهق. فيقول: قد غفرت لهم فما من يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة) وقال: إسناد حسن متصل انتهى. ورويناه من وجه

آخر بزيادة فيه وهي: (أشهدكم يا عبادي أني قد غفرت لمحسنهم وتجاوزت عن مسيئهم) ورويناه من رواية إسماعيل بن رافع ـ وفيه مقال ـ عن أنس عن النبي قال: (يهبط الله إلى السماء الدنيا عشية عرفة، ثم يباهي بكم الملائكة فيقول: هؤلاء عبادي جاؤوني شعثا من كل فج عميق، يرجون رحمتي ومغفرتي فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورا لكم ولمن شفعتم فيه) وخرجه البزار في مسنده بمعناه من حديث مجاهد عن ابن عمر عن النبي وقال: (لا نعلم له طريقا أحسن من هذا الطريق) وخرجه الطبراني وغيره من حديث عبد الله بن العاص عن النبي مختصرا ورويناه من طريق الوليد بن مسلم قال: أخبرني أبوبكر بن أبي مريم عن الأشياخ أن النبي قال: (إن الله عز وجل يدنو إلى السماء الدنيا عشية فيقبل على ملائكته فيقول: ألا إن لكل وفد جائزة، وهؤلاء وفدي شعثا غبرا أعطوهم ما سألوا واخلفوا لهم ما أنفقوا حتى إذا كان عند غروب الشمس أقبل عليهم. فقال: ألا إني قد وهبت مسيئكم لمحسنكم، وأعطيت محسنكم ما سأل أفيضوا بسم الله) وروى إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي حدثنا فرقد قال: إن أبواب السماء تفتح كل ليلة ثلاث مرات، وفي ليلة الجمعة سبع مرات، وفي ليلة عرفة تسع مرات. وروينا من طريق نفيع أبي دواد عن ابن عمر مرفوعا وموقوفا: (إذا كان يوم عرفة لم يبق أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا غفر له. قيل له: أللمعروف خاصة أم للناس عامة ؟ قال: بل للناس عامة) وخرج مالك في الموطأ من مراسيل طلحة بن عبيد الله بن كريز أن النبي قال: (ما رؤي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رؤي يوم بدر)،قيل: وما رؤي يوم بدر؟ قال: (رأى جبريل عليه السلام وهو يزع

الملائكة).

وروى أبوعثمان الصابوني بإسناد له عن رجل كان أسيرا ببلاد الروم، فهرب من بعض الحصون قال: فكنت أسير بالليل وأكمن بالنهار، فبينا أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار إذا أنا بحس فراعني ذلك، فنظرت فإذا راكب بعير فازددت رعبا، وذلك لأنه لا يكون ببلاد الروم بعير، فقلت: سبحان الله في بلاد الروم راكب بعير، إن هذا لعجب، فلما انتهى إليّ قلت: يا عبد الله! من أنت ؟ قال: لا تسأل. قلت: إني أرى عجبا ! فأخبرني ؟ فقال: لا تسأل. فأبيت عليه، فقال: أنا إبليس وهذا وجهي من عرفات رافقتهم عشية اليوم، اطلع عليهم. فنزلت عليهم المغفرة ووهب بعضهم لبعض، فداخلني اللهم والحزن والكآبة، وهذا وجهي إلى قسطنطينية انفرج بما أسمع من الشرك بالله وادعاء أن له ولدا. فقلت: أعوذ بالله منك. فلما قلت هذه الكلمات لم أر أحدا، ويشهد لهذه الحكاية حديث عباس بن مرداس الذي خرجه أحمد وابن ماجه في دعاء النبي لأمته عشية عرفة، ثم بالمزدلفة فأجيب فضحك وقال: (إن إبليس حين علم أن الله قد غفر لأمتي واستجاب دعائي أهوى يحثي التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور، فضحكت من الخبيث من جزعه) ويروى عن علي بن موفق أنه وقف بعرفة في بعض حجاته فرأى كثرة الناس فقال: اللهم إن كنت لم تتقبل منهم أحدا، فقد وهبته حجي، فرأى رب العزة في منامه وقال له: يا ابن الموفق! أتسخى عليّ، قد غفرت لأهل الموقف ولأمثالهم، وشفّعت كل واحد منهم في أهل بيته وذريته وعشيرته، وأنا أهل التقوى، وأنا أهل المغفرة. ويروى نحوه عن غيره أيضا من الشيوخ.

فمن طمع في العتق من النار، ومغفرة ذنوبه في يوم عرفة فليحافظ على الأسباب التى يرجى بها العتق والمغفرة.

فمنها: صيام ذلك اليوم ففي صحيح مسلم عن

أبي قتادة عن النبي قال: (صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده).

ومنها: حفظ جوراحه عن المحرمات في ذاك اليوم، ففي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي أنه قال: (يوم عرفة هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له).

ومنها: الإكثار من شهادة التوحيد بإخلاص وصدق، فإنها أصل دين الإسلام الذي أكلمه الله تعالى في ذلك اليوم وأساسه، وفي المسند عن عبد الله بن عمر قال: كان أكثر دعاء النبي يوم عرفة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير) وخرجه الترمذي ولفظه: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قلبي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) وخرجه الطبراني من حديث علي وابن عمر مرفوعا أيضا، وخرج الإمام أحمد من حديث الزبير بن العوام قال سمعت رسول الله وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) الآية. ويقول: (وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب) ويروى من حديث عبادة قال شهدت النبي يوم عرفة فكان أكثر قوله: (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآية. ثم قال: (أي رب وأنا أشهد). فتحقيق كلمة التوحيد يوجب عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار، كما ثبت في الصحيح: (أن من قالها مائة مرة كان له عدل عشر رقاب) وثبت أيضا: (أن من قالها عشر مرات كان كمن اعتق أربعة من ولد إسماعيل) وفي سنن أبي دواد وغيره عن أنس عن النبي قال: (من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم أني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت، وأن محمدا عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار، ومن

قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاث مرات أعتق ثلاثة أرباعه، ومن قالها أربع مرات أعتقه الله من النار) ويروى من مراسيل الزهري: (من قال في يوم: عشرة آلاف مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له أعتقه الله من النار كما أنه لو جاء بدية من قتله عشرة آلاف قبلت منه)

ومنها: أن يعتق رقبة إن أمكنه فإن من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار. كان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقف بعرفة ومعه مائة بدنة مقلدة، ومائة رقبة فيعتق رقيقه، فيضج الناس بالبكاء والدعاء، ويقولون: ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فاعتقنا، وجرى للناس مرة مع الرشيد نحو هذا، وكان أبوقلابة يعتق جارية في عيد الفطر يرجو أن يعتق بذلك من النار.

ومنها: كثرة الدعاء بالمغفرة والعتق، فإنه يرجى إجابة الدعاء فيه. روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي قال: ليس في الأرض يوم إلا لله فيه عتقاء من النار، وليس يوم أكثر فيه عتقا للرقاب من يوم عرفة فأكثر فيه أن تقول: اللهم أعتق رقبتي من النار، وأوسع لي من الرزق الحلال، واصرف عني فسقة الجن والإنس. فإنه عامة دعائي اليوم، وليحذر من الذنوب التي تمنع المغفرة فيه والعتق.

فمنها: الاختيال روينا من حديث جابر عن النبي قال: (ما يري يوم أكثر عتيقا ولا عتيقة من يوم عرفة لا يغفر الله فيه لمختال) وخرجه البزار والطبراني وغيرهما، والمختال هو المتعاظم في نفسه المتكبر، قال الله تعالى: (والله لا يحب كل مختال فخور) وقال النبي : (إن الله لا ينظر إلى جر ثوبه خيلاء).

ومنها: الإصرار على الكبائر، روى جعفر السراج بإسناده عن يونس بن عبد الأعلى أنه حج سنة، فرأى أمير الحاج في منامه: أن الله قد غفر لأهل الموسم سوى رجل فسق بغلام، فأمر بالنداء بذلك

في الموسم. وروى ابن أبي الدنيا وغيره أن رجلا رأى في منامه أن الله قد غفر لأهل الموقف كلهم إلا رجلا من أهل بلخ، فسأل عنه حتى وقع عليه فسأله عن حاله، فذكر أنه كان مدمنا لشرب الخمر ليلة وهو سكران، فعاتبته أمه وهي تسجر تنور فاحتملها فألقاها فيه، حتى احترقت يا من يطمع في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الإثم والأوزار، تالله نصحت نفسك ولا وقف في طريقك غيرك توبق نفسك بالمعاصي، فإذا حرمت المغفرة قلت: إني هذا: (قل هو من عند أنفسكم).

فنفسك لم ولا تلم ومت كمدا فليس
إن كنت تطمع في العتق فاشتر نفسك من

الله، (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) من كرمت عليه نفسه هان عليه كل ما يبذل في افتكاكها من النار، إشترى بعض السلف نفسه من الله ثلاث مرات أو أربعا يتصدق كل مرة بوزن نفسه فضة، واشترى عامر بن عبد الله بن الزبير نفسه من الله بدية ست مرات تصدق بها، واشترى حبيب العجمي نفسه من الله بأربعين ألف درهم تصدق بها، وكان أبوهريرة يسبّح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، بقدر ديته يفتك بذلك نفسه.

بدم الحبيب يباع فمن الذي يبتاع

من عرف ما يطلب هان عليه كل ما يبذل، ويحك قد رضينا منك في فكاك نفسك بالندم، وقنعنا منك في ثمنها بالتوبة والحزن، وفي هذا الموسم قد رخص السعر، من ملك سمعه وبصره ولسانه غفر له مد إليه يد الاعتذار، وقم على بابه بالذل والانكسار، وارفع قصة ندمك مرقومة على صحيفة خدك بمداد الدموع والغزار، وقل: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) قال يحيى بن معاذ: العبد يوحش ما بينه وبين سيده بالمخالفات، ولا يفارق بابه بحال، لعلمه بأن عز العبيد في ظل مواليهم، وأنشأ يقول:

قرة عيني لا بد لي أوحش بيني وبينك
قرة عيني أنا كف غريق عليك

أحوال الصادقين في عرفة

كانت أحوال الصادقين في الموقف بعرفة تتنوع: فمنهم: من كان يغلب عليه الخوف أو الحياء، وقف مطرف بن عبد الله بن الشخير وبكر المزني بعرفة فقال أحدهم: اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي، وقال الآخر: ما أشرفه من موقف وأرجاه لأهله لولا أني فيهم، وقف الفضيل بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، قد حال البكاء بينه وبين الدعاء، فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن عفوت. وقال الفضيل أيضا لشعيب بن حرب بالموسم: إن كنت تظن أنه شهد الموقف أحد شرا مني ومنك فبئس ما ظننت. دعا بعض العارفين بعرفة فقال: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول مني. وقف بعض الخائفين بعرفة إلى أن قرب غروب الشمس فنادى الأمانَ، فقد دنا الانصراف، فليت شعري ما صنعت في حاجة المساكين.

وإني من خوفكم أرى الموت
فمنوا على تائب أتاكم ينادي الأمان

إذا طلب الأسير من الملك الكريم أمنه أمّنه.

الأمان الأمان وذنوبي إذا عددن
أوبقتني وأوثقتني فترى لي إلى

وقف بعض الخائفين بعرفة فمنعه الحياء من الدعاء، فقيل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثم وحشة. فقيل له: هذا يوم العفو عن الذنوب. فبسط يديه ووقع ميتا.

جز أيها الحادي فاستذكرت عهدا
فسالت الروح من تشوقا إلى الزمان

غيره:

قد لجّ بني من قد جن فيهم
الموت إذا رضيته في مثل هواك

وقف بعض الخائفين بعرفات وقال: إلهي! الناس يتقربون إليك بالبدن، وأنا أتقرب إليك بنفسي ثم خر ميتا.

للناس حج ولي تهدى الأضاحي

ما يرضى المحبون لمحبوبهم بإراقة دماء الهديا، وإنما يهدون له الأرواحا.

أرى موسم الأعياد وما العبد عندي
إذا قربوا بدنا فإن قبلوا قلبي
وما بدم الأنعام ولكن بما بين

كان أبوعبيدة الخواص قد غلب عليه الشوق والقلق حتى يضرب على صدره في الطريق ويقول: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه. وكان بعد ما كبر يأخذ بلحيته ويقول: يا رب! قد كبرت فاعتقني. ورؤي بعرفة وقد ولع به الوله وهو يقول:

سبحان من لوسجدنا على حمى الشوك
لم نبلغ العشر من ولا العشير ولا عشرا
هو الرفيع فلا سبحانه من مليك نافذ
سبحان من هو أنسى في جوف ليلي وفي
أنت الحبيب وأنت من لي سواك ومن

ومن العارفين من كان بالموقف يتعلق بأذيال الرجاء قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه، وعيناه تهملان فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالا ؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم. وروي عن الفضيل أنه نظر إلى تسبيح الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوا دانقا ـ يعني سدس درهم ـ أكان يردهم؟ قالوا: لا. قال: والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق.

وإني لأدعوالله واعلم أن الله
لئن أعظم الناس وإن عظمت في

وعما قليل تقف إخوانكم بعرفة في ذلك الموقف، فهنيئا لمن رزقه يجاورن إلى الله بقلوب محترقة، ودموع مستبقة، فكم فيهم من خائف أزعجه الخوف وأقلقه، ومحب ألهبه الشوق وأحرقه، وراج أحسن الظن بوعد الله وصدقه، وتائب نصح لله في التوبة وصدقه، وهارب لجأ إلى باب الله وطرقه، فكم هنالك من مستوجب للنار أنقذه الله وأعتقه، ومن أسير للأوزار فكه وأطلقه، وحينئذ يطلع عليهم أرحم الرحماء، ويباهي بجمعهم أهل السماء، ويدنو ثم يقول: ما أراد هؤلاء ؟ لقد قطعنا عند وصولهم الحرمان، وأعطاهم نهاية سؤلهم الرحمن، وهو الذي أعطى ومنع ووصل وقطع.

ما أصنع هكذا الجبر لغيري وأنا
أسير ذنب مقيد هل يمكن أن يبدل

من فاته في هذا العام القيام بعرفة فليقم لله بحقه الذي عرفه، من عجز عن المبيت بمزدلفة فليبت عزمه على طاعة الله وقد قربه وأزلفه، من لم يمكنه القيام بأرجاء الخيف فليقم لله بحق الرجاء والخوف، من لم يقدر على نحر هديه بمنى فليذبح هواه هنا، وقد بلغ المنى، من لم يصل إلى البيت لأنه منه بعيد، فليقصد رب البيت فإنه أقرب إلى من دعاه ورجاه من حبل الوريد، نفحت في هذه الأيام نفحة من نفحات الأنس من رياض القدس على كل قلب أجاب إلى ما دعى.

يا همم العارفين بغير الله لا تقنعي، يا عزائم الناسكين لجميع أنساك السالكين اجمعي لحب مولاك أفردي، وبين خوفه ورجائه اقرني، وبذكره تمتعي، يا أسرار المحبين بكعبة الحب طوفي واركعي، وبين صفاء الصفا ومروة المروى اسعي واسرعي، وفي عرفات الغرفات قفي وتضرعي، ثم إلى مزدلفة الزلفى فادفعي، ثم إلى منى نيل المنى فارجعي، فإذا قرب القرابين فقربي الأرواح

ولا تمنعي، لقد وضح الطريق ولكن قل السالك على التحقيق وكثر المدعي.

لئن لم أحج البيت حججت إلى من لا
فأحرمت من وقتي أطوف وأسعى في
صفاي صفائي عن مروءة قلبي عن
وفي عرفات الأنس ومزدلفي الزلفى
وبت المنى مني ورمي جماري جمر
وأشعار هدي ذبح وخلعي
ومن رام نفرا بعد مقيم على نسكي بلا

المجلس الثالث في أيام التشريق

خرج مسلم في صحيحه من حديث نبيشة الهذلي أن النبي قال: (أيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) وخرجه أهل السنن والمسانيد من طرق متعددة عن النبي وفي بعضها: (أن النبي بعث في أيام منى مناديا ينادي: لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) وفي رواية للنسائي: (أيام أكل وشرب وصلاة) وفي رواية للدارقطني بإسناد فيه ضعف: (أيام أكل وشرب وبعال) وفي رواية للإمام أحمد: (من كان صائما فليفطر، فإنها أيام أكل وشرب) وفي رواية: أنها ليست أيام صيام، أيام منى هي الأيام المعدودات التي قال الله عز وجل فيها: (واذكروا الله في أيام معدودات) وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهي أيام التشريق. هذا قول ابن عمر وأكثر العلماء. وروي عن ابن عباس وعطاء أنها أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده. وسماها عطاء أيام التشريق. والأول أظهر وقد قال النبي : (أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه) خرجه أهل السنن الأربعة من حديث عبد الرحمن بن يعمر عن النبي وهذا صريح في أنها أيام التشريق، وأفضلها أولها يوم القرّ، لأن أهل منى يستقرون

فيه، ولا يجوز فيه النفر. وفي حديث عبد الله بن قرط عن النبي ﷺ: أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القرّ) وقد روي عن سعيد بن المسيب: أن يوم الحج الأكبر هو يوم القرّ، وهو غريب ثم يوم النفر الأول وهو أوسطها، ثم يوم النفر الثاني وهو آخرها قال الله تعالى: (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه) قال كثير من السلف: يريد أن المتعجل والمتأخر يغفر له، ويذهب عنه الإثم الذي كان عليه قبل حجه إذا حج فلم يرفث ولم يفسق ورجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ولهذا قال تعالى: (لمن اتقى) فتكون التقوى شرطا لذهاب الإثم على هذا التقدير، وتصير الآية دالة على ما صرح به قول النبي ﷺ: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) وقد أمر الله تعالى بذكره في هذه الأيام المعدودات كما قال النبي ﷺ: (إنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) وذكر الله عز وجل المأمور به في أيام التشريق أنواع متعددة:

منها: ذكر الله عز وجل عقب الصلوات المكتوبات بالتكبير في أدبارها، وهو مشروع إلى آخر أيام التشريق عند جمهور العلماء. وقد روي عن عمر وعلي وابن عباس وفيه حديث مرفوع في إسناده ضعف.

ومنها: ذكره بالتسمية والتكبير عند ذبح النسك فإن وقت ذبح الهدايا والأضاحي يمتد إلى آخر أيام التشريق عند جماعة من العلماء. وهو قول الشافعي ورواية عن الإمام أحمد، وفيه حديث مرفوع: (كل أيام منى ذبح) وفي إسناده مقال، وأكثر الصحابة على أن الذبح يختص بيومين من أيام التشريق مع يوم النحر وهو المشهور عن أحمد وقول مالك وأبي حنيفة والأكثرين.

ومنها: ذكر الله عز وجل على الأكل والشرب فإن المشروع في الأكل والشرب أن يسمي الله في أوله ويحمده في آخره وفي الحديث عن النبي الله: (أن الله عز وجل يرضى عن العبد أن يأكل

الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها) وقد روي: أن من سمى على أول طعامه وحمد الله على آخره فقد أدى ثمنه، ولم يسأل بعد عن شكره.

ومنها: ذكره بالتكبير عند رمي الجمار في أيام التشريق، وهذا يختص به أهل الموسم.

ومنها: ذكر الله تعالى المطلق، فإنه يستحب الإكثار منه في أيام التشريق، وقد كان عمر يكبر بمنى في قبته فيسمعه الناس فيكبرون فترتج منى تكبيرا وقد قال الله تعالى: (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) إلى آخر الآية. وقد استحب كثير من السلف كثرة الدعاء بهذا في أيام التشريق. قال عكرمة: كان يستحب أن يقال في أيام التشريق: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وعن عطاء قال: ينبغي لكل من نفر أن يقول حين ينفر متوجها إلى أهله: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) خرجهما عبد بن حميد في تفسيره. وهذا الدعاء من أجمع الأدعية للخير، وكان النبي يكثر منه. وروي أنه كان أكثر دعائه، وكان إذا دعا بدعاء جعله معه، فإنه يجمع خير الدنيا والآخرة. قال الحسن: الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة. وقال سفيان: الحسنة في الدنيا: العلم والرزق الطيب، وفي الآخرة: الجنة.

والدعاء من أفضل أنواع ذكر الله عز وجل، وقد روى زياد الجصّاص عن أبي كنانة القرشي أنه سمع أبا موسى الأشعري يقول في خطبته يوم النحر: بعد يوم النحر ثلاثة أيام التي ذكر الله الأيام المعدودات لا يرد فيهن الدعاء، فارفعوا رغبتكم إلى الله عز وجل.

وفي الأمر بالذكر عند انقضاء النسك معنى، وهو أن سائر العبادات تنقضي ويفرغ منها، وذكر الله باق لا ينقضي ولا يفرغ منه بل هو مستمر للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وقد أمر الله تعالى

بذكره عند انقضاء الصلاة قال الله تعالى: (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) وقال في صلاة الجمعة: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا) وقال تعالى: (فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب). روي عن ابن مسعود قال: فإذا فرغت من الفرائض فانصب، وعنه قوله: (وإلى ربك فارغب) قال: في المسألة وأنت جالس. وقال الحسن: أمره إذا فرغ من غزوة أن يجتهد في الدعاء والعبادة، فالأعمال كلها يفرغ منها والذكر لا فراغ له ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. المؤمن يعيش على الذكر، ويموت عليه وعليه يبعث.

أحسبتموا أن عهد الهوى لا كان
يفنى الزمان وعلى محبتكم

قال ذوالنون: ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا الآخرة إلا بعفوه، ولا الجنة إلا برؤيته.

بذكر الله ترتاح ودنيانا بذكراه
إذا ذكر المحبوب ترنَّح نشوان وحن

فأيام التشريق يجتمع فيها للمؤمنين نعيم أبدانهم بالأكل والشرب ونعيم قلوبهم بالذكر والشكر، وبذلك تتم النعم، وكلما أحدثوا شكرا على النعمة كان شكرهم نعمة أخرى،فيحتاج إلى شكر آخر، ولا ينتهي الشكر أبدا.

إذا كان شكري علي له في مثلها
فكيف بلوغ الشكر وإن طالت الأيام

في قول النبي : (إنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) إشارة إلى أن الأكل في أيام الأعياد والشرب إنما يستعان به على ذكر الله تعالى وطاعته، وذلك من تمام شكر النعمة أن يستعان بها على الطاعات، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالأكل من الطيبات والشكر له، فمن استعان بنعم الله على معاصيه فقد كفر نعمة الله وبدلها كفرا، وهو

جدير أن يسلبها كما قيل:

إذا كنت في نعمة فإن المعاصي
ودِاوم عليها بشكر فشكر الإله يزيل

وخصوصا نعمة الأكل من لحوم بهيمة الأنعام كما في أيام التشريق، فإن هذه البهائم مطيعةلله لاتعصيه وهي مسبحة له قانتة، كما قال تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وإنها تسجد له، كما أخبر بذلك في سورة النحل وسورة الحج، وربما كانت أكثر ذكرا لله من بعض بني آدم. وفي المسند مرفوعا: (رب بهيمة خير من راكبها وأكثر لله منه ذكرا) وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن كثيرا من الجن والإنس كالأنعام بل هم أضل، فأباح الله عز وجل ذبح هذه البهائم المطيعة الذاكرة له لعباده المؤمنين حتى تتقوى بها أبدانهم، وتكمل لذاتهم في أكلهم اللحوم، فإنها من أجلِّ الأغذية وألذّها، مع أن الأبدان تقوم بغير اللحم من النباتات وغيرها، لكن لا تكمل القوة والعقل واللذة إلا باللحم، فأباح للمؤمنين قتل هذه البهائم والأكل من لحومها ليكمل بذلك قوة عباده وعقولهم، فيكون ذلك عونا لهم على علوم نافعة، وأعمال صالحة يمتاز بها بنوآدم على البهائم، وعلى ذكر الله عز وجل وهو أكثر من ذكر البهائم، فلا يليق بالمؤمن مع هذا إلا مقابلة هذه النعم بالشكر عليها والاستعانة بها على طاعة الله عز وجل وذكره، حيث فضّل الله ابن آدم على كثير من المخلوقات، وسخر له هذه الحيوانات، قال الله تعالى: (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) فأما من قتل هذه البهيمة المطيعة الذاكرة لله عز وجل، ثم استعان بأكل لحومها على معاصي الله عز وجل، ونسي ذكر الله عز وجل فقد قلب الأمر وكفر النعمة، فلا كان من كانت البهائم خيرا منه وأطوع.

نهارك يا مغرور وليلك نوم والردى
وتتعب فيما سوف كذلك في الدنيا

وإنما نهى عن صيام أيام التشريق لأنها أعياد للمسلمين مع يوم النحر، فلا تصام بمنى ولا غيرها

عند جمهور العلماء خلافا لعطاء في قوله: إن النهي يختص بأهل منى، وإنما نهي عن التطوع بصيامها سواء وافق عادة أولم يوافق، فأما صيامها عن قضاء فرض أو نذر أو صيامها بمنى للمتمتع إذا لم يجد الهدي ففيه اختلاف مشهور بين العلماء، ولا فرق بين يوم منها ويوم عند الأكثرين إلا عند مالك، فإنه قال في اليوم الثالث منها: يجوز صيامه عن نذر خاصة.

وفي النهي عن صيام هذه الأيام والأمر بالأكل فيها والشرب سر حسن، وهو أن الله تعالى لما علم ما يلاقي الوافدون إلى بيته من مشاق السفر، وتعب الإحرام، وجهاد النفوس على قضاء المناسك شرع لهم الاستراحة عقب ذلك بالإقامة بمنى يوم النحر، وثلاثة أيام بعده وأمرهم بالأكل فيها من لحوم نسكهم، فهم في ضيافة الله عز وجل فيها لطفا من الله بهم، ورأفة ورحمة، وشاركهم أيضا أهل الأمصار في ذلك، لأن أهل الأمصار شاركوهم في حصول المغفرة والنصب لله، والاجتهاد في عشر ذي الحجة بالصوم والذكر والاجتهاد في العبادات، وشاركوهم في حصول المغفرة، وفي التقرب إلى الله تعالى بإراقة دماء الأضاحي، فشاركوهم في أعيادهم، واشترك الجميع في الراحة في أيام الأعياد بالأكل والشرب كما اشتركوا جميعا في أيام العشر في الاجتهاد في الطاعة والنصب، وصار المسلمون كلهم في ضيافة الله عز وجل في هذه الأيام، يأكلون من رزقه ويشكرونه على فضله، ونهوا عن صيامهم لأن الكريم لا يليق به أن يجيع أضيافه، فكأنه قيل للمؤمنين في هذه الأيام قد فرغ عملكم الذي عملتموه، فما بقي لكم إلا الراحة، فهذه الراحة بهذا كالتعب، كما أريح الصائمون لله شهر رمضان بأمرهم بإفطار يوم عيد الفطر، ويؤخذ من هذا إشارة إلى حال المؤمنين في الدنيا، فإن الدنيا كلها أيام سفر كأيام الحج، وهي زمان إحرام المؤمن عما حرم عليه من الشهوات، فمن صبر في مدة سفره على إحرامه، وكف عن الهوى، فإذا انتهى

سفر عمره ووصل إلى منى المنى فقد قضى تفثه، ووفى نذره، فصارت أيامه كلها كأيام منى، أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل، وصار في ضيافة الله عز وجل في جواره أبد الأبد، ولهذا يقال لأهل الجنة: (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية).

(كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) وقد قيل: إنها نزلت في الصوام في الدنيا

وقد صمت عن لذات ... ويوم لقاكم ذاك

قال بعض السلف: صم عن الدنيا وليكن فطرك الموت.

فصم يومك الأدنى ... تفوز بعيد الفطر

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها غدا بعد وفاته، ومن تعجل ما حرم عليه من لذاته عوقب بحرمان نصيبه من الجنة وفواته، شاهد ذلك: من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير لم يلبسه في الآخرة.

أنت في دار شتات ... فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيوم ... صمته عن

وليكن فطرك عند ... ه في يوم وفاتك

قال الله تعالى: (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) الجنة ضيافة الله أعدها للمؤمنين نزلا، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبعث رسول الله يدعو إليها بالإيمان والإسلام والإحسان، فمن أجابه دخل الجنة، وأكل من تلك الضيافة، ومن لم يجب حرم.

خرج الترمذي عن جابر قال: خرج علينا رسول الله يوما فقال: (رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بناء، وجعل فيها مائدة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب

الرسول ومنهم من تركه، فالله تعالى هو الملك، والدار هي الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول الله، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل فيها) وخرجه البخاري بمعناه ولفظه: (مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، والدار الجنة، والداعي محمد) في بعض الآثار الإسرائيلية يقول الله تعالى: (ابن آدم ما أنصفتني أذكرك وتنساني، أدعوك فتفر مني إلى غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت منعكف على الخطايا، ابن آدم ما يكون اعتذارك غدا إذا جئتني) طوبى لمن أجاب مولاه: (يا قومنا أجيبوا داعي الله).

يا نفس ويحك قد أجيبي فداعي
كم قد دعيت إلى وتجيبي داعي

كل ما في الدنيا يذكر بالآخرة، فمواسمها وأعيادها وأفراحها تذكر بمواسم الآخرة وأعيادها وأفراحها. صنع عبد الواحد بن زيد طعاما لإخوانه فقام عتبة الغلام على رؤوس الجماعة يخدمهم وهو صائم، فجعل عبد الواحد ينظر إليه ويسارقه النظرو ودموع عتبة تجري، فسأله بعد ذلك عن بكائه حينئذ؟ فقال: ذكرت موائد الجنة والولدان قائمون على رؤوسهم فصعق عبد الواحد. أبدان العارفين في الدنيا وقلوبهم في الآخرة.

جسمي معي غير أن فالجسم في غربة

أعياد الناس تنقضي فأما أعياد العارفين فدائمة. قال الحسن: كل يوم لا تعصي الله فهو لك عيد. جاء بعضهم إلى بعض العارفين فسلم عليه وقال له: أريد أن أكلمك. فقال: اليوم لنا عيد، فتركه ثم جاء يوما آخر فقال له مثل ذلك، ثم جاء يوما آخر فقال له مثل ذلك، فقال له: ما أكثر أعيادك! قال: يا بطال أما علمت أن كل يوم لا تعصي الله فيه فهو لنا عيد!. أوقات العارفين كلها فرح وسرور بمناجاة مولاهم وذكره فهي أعياد.

وكان الشبلي ينشد:

إذا ما كنت لي عيدا فما أصنع بالعيد

جرى حبك في كجري الماء في

وأنشد أيضا:

عيدي مقيم وعيد والقلب مني عن

ولي قرينان مالي طول الحنين وعين

المجلس الرابع في ختام العام.

خرج الإمام أحمد من حديث جابر عن النبي قال: (لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة) فتمني الموت يقع على وجوه. منها: تمنيه لضر دنيوي ينزل بالعبد فينهى حينئذ عن تمني الموت. وفي (الصحيحين)عن أنس عن النبي قال: لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي) ووجه كراهيته في هذا الحال أن المتمني للموت لضر نزل به إنما يتمناه تعجيلا للاستراحة من ضره، وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت، فلعله يصير إلى ضر أعظم من ضره، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار. وفي الحديث عن النبي قال: (إنما يستريح من غفر له) فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيرا له عند الله عز وجل، فكذلك كل ما يعلم العبد فيه الخيرة له كالغنى والفقر وغيرهما، كما يشرع له استخارة الله تعالى فيما يريد أن يعمله مما لا يعلم وجه الخيرة فيه، وإنما يسأل الله عز وجل على وجه الجزم والقطع مما يعلم أنه خير محض كالمغفرة والرحمة والعفو والعافية والتقى والهدى ونحو ذلك.

ومنها: تمنيه خوف الفتنة في الدين فيجوز حينئذ، وقد تمناه ودعا به خشية فتنة الدين خلق من الصحابة وأئمة الإسلام، وفي حديث المنام: (وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون).

ومنها: تمني الموت عند حضور أسباب الشهادة

اغتناما لحضورها، فيجوز ذلك أيضا، وسؤال الصحابة الشهادة وتعرضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور، وكذلك سؤال معاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام.

ومنها: تمني الموت لمن وثق بعمله شوقا إلى لقاء الله عز وجل، فهذا يجوز أيضا، وقد فعله كثير من السلف. قال أبوالدرداء: أحب الموت اشتياقا إلى ربي. وقال أبوعنبسة الخولاني: كان من قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد.

وقال بعض العارفين: طال شوقي إليك فعجل قدومي عليك،. وقال بعضهم: لا تطيب نفسي بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله عز وجل، فإنني حينئذ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه في اليوم الحار الشديد حره إلى الماء البارد الشديد برده. وفي هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا شوق ظأم إلى

وقد دل على جواز ذلك قول الله عز وجل: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت) وقوله: (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت) فدل ذلك على أن أولياء الله لا يكرهون الموت بل يتمنوه، ثم أخبر أنهم: (ولا يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) فدل ذلك على: أنه يكره الموت من له ذنوب يخاف القدوم عليها. كما قال بعض السلف: ما يكره الموت إلا مريب. وفي حديث عمار بن ياسر عن النبي :(أسألك لذة النظر إلى وجهك، وشوقا إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة).

فالشوق إلى لقاء الله تعالى إنما يكون بمحبة الموت، وذلك لا يقع غالبا إلا عند خوف ضراء مضرة في الدنيا، أو فتنة مضلة في الدين. فأما إذا خلا عن ذلك كان شوقا إلى لقاء الله عز وجل، وهو المسؤول في هذا الحديث. وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي قال: (لا يتمنين الموت إلا من وثق بعمله) فالمطيع لله مستأنس بربه فهو يحب

لقاء الله والله يحب لقاءه، والعاصي مستوحش بينه وبين مولاه وحشة الذنوب، فهو يكره لقاء ربه ولا بد له منه. قال ذو النون: كل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش، وفي هذا يقول بعضهم:

أمستوحش أنت فأحسِن إذا شئت

قال أبوبكر الصديق لعمر رضي الله عنهما في وصيته له عند الموت: إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت، ولا بد لك منه، وإن ضيعتها لم يكن غائب أكره إليك من الموت، ولن تعجزه. قال أبوحازم: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى مت. العاصي يفر من الموت لكراهية لقاء الله، وأين يفر من هو في قبضة من يطلبه.

أين المفر والإله والمجرِم المغلوب

سئل أبوحازم: كيف القدوم على الله ؟ قال: أما المطيع فقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان.

رؤي بعض الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال: خيرا لم ير مثل الكريم إذا حل به مطيع، الدنيا كلها شهر صيام المتقين، وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم.

كما قيل:

وقد صمت عن لذات ويوم لقائكم ذاك

ومنها: تمني الموت على غير الوجوه المتقدمة، فقد اختلف العلماء في كراهيته واستحبابه، وقد رخص فيه جماعة من السلف، وكرهه آخرون، وحكى بعض أصحابنا عن أحمد في ذلك روايتين ولا يصح، فإن أحمد إنما نص على كراهة تمني الموت لضرر الدنيا، وعلى جواز تمنيه خشية الفتنة في الدين، وربما أدخل بعضهم في هذا الاختلاف القسم الذي قبله وفي ذلك نظر. واستدل من كرهه بعموم النهي عنه كما في حديث جابر الذي ذكرناه، وفي معناه أحاديث أخر يأتي بعضها إن شاء الله تعالى.

وقد علل النهي عن تمني الموت في حديث جابر بعلتين: إحداهما: أن هول المطلع شديد وهول المطلع: هو ما يكشف للميت عند حضور الموت من الأهوال التي عهد له بشيء منها في الدنيا من رؤية الملائكة ورؤية أعماله من خير أو شر، وما يبشر به عند ذلك من الجنة والنار، هذا مع ما يلقاه من شدة الموت وكربه وغصصه، وفي الحديث الصحيح: (إذا حملت الجنازة وكانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويلها أين تذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق). قال الحسن: لو علم ابن آدم أن له في الموت راحة وفرحا لشق عليه أن يأتيه الموت لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت نعيم دائم أو عذاب مقيم. بكى النخعي عند احتضاره وقال: انتظر ملك الموت لا أدري يبشرني بالجنة أو النار. فالمتمني للموت كأنه يستعجل حلول البلاء، وإنما أمرنا بسؤال العافية. وسمع ابن عمر رجلا يتمنى الموت فقال: لا تتمنى الموت فإنك ميت، ولكن سل الله العافية. قال إبراهيم بن أدهم: إن للموت كأسا لا يقوى عليها إلا خائف وجل مطيع لله كان يتوقعها. وقال أبوالعتاهية:

ألا للموت كأس وأنت لكأسه لا بد
إلِيَ كَمِ تذِكر بالممات

جزع الحسن بن علي رضي الله عنهما عند موته وقال: إني أريد أن أشرف على ما لم أشرف عليه قط. وبكى الحسن البصري عند موته وقال: نفيسة ضعيفة وأمر مهول عظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان حبيب العجمي عند موته يبكي ويقول: أريد أن أسافر سفرا ما سافرته قط، وأسلك طريقا ما سلكته قط، وأزور سيدي ومولاي وما رأيته قط، وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط.

فهذا كله من هول المطلع الذي قطع قلوب الخائفين حتى قال عمر عند موته: لو أن لي ما في

الأرض لافتديت به من هول المطلع. ومن هول المطلع ما يكشف للميت عند نزوله قبره من فتنة القبر، فإن الموتى يفتنون بالمسألة في قبورهم مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال، وما يكشف لهم في قبورهم عن منازلهم من الجنة والنار، وما يلقون من ضمة القبر وضيقته وهوله وعذابه إن لم يعاف الله من ذلك. رؤي بعض الصالحين في المنام بعد موته فسئل عن حاله فأنشد:

وليس يعلم ما إلا الإله وساكن

والعلة الثانية: أن المؤمن لا يزيد عمره إلا خيرا، فمن سعادته أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة إليه والتوبة من ذنوبه السالفة، والاجتهاد في العمل الصالح، فإذا تمنى الموت فقد تمنى إقطاع عمله الصالح، فلا ينبغي له ذلك وروى إبراهيم الحربي من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن ابن المطلب عن أبيه أن النبي قال: (السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل) وقد روي هذا المعنى عن النبي من وجوه متعددة، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (لا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي قال: (لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا). وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إن مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا) وفيه عن أم الفضل رضي الله عنها أن النبي سمع العباس وهو يشتكي فتمنى الموت فقال: (لا تتمنى الموت فإنك إن كنت محسنا تزداد إحسانا إلى إحسانك، وإن كنت مسيئا فإن تؤخر تستعتب من إساءتك خير لك)، وفيه أيضا عن أبي

أمامة رضي الله عنه قال: جلسنا إلى رسول الله فذكرنا ورققنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال: يا ليتني مت. فقال النبي : (يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك) وفي المعنى أحاديث أخر كثيرة وكلها تدل على النهي عن تمني الموت بكل حال، وأن طول عمر المؤمن خير له فإنه يزداد فيه خيرا، وهذا قد قيل إنه يدخل فيه تمنيه للشوق إلى لقاء الله، وفيه نظر، فإن النبي قد تمناه في تلك الحال.

واختلف السالكون أيما أفضل، من تمنى الموت شوقا إلى لقاء الله أو من تمنى الحياة رغبة في طاعة الله أومن فوّض الأمر إلى الله ورضي باختياره له ولم يختر لنفسه شيئا. واستدل طائفة من الصحابة على تفضيل الموت على الحياة بقول الله عز وجل: (وما عند الله خير للأبرار). ولكن الأحاديث الصحيحة تدل على أن عمر المؤمن كلما طال ازداد بذلك ما له عند الله من الخير، فلا ينبغي له أن يتمنى انقطاع ذلك اللهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه، فإنه إذا خشي الفتنة على دينه فقد خشي أن يفوته ما عند الله من خير، ويتبدل ذلك بالشر عياذا بالله من ذلك، والموت خير من الحياة على هذه الحال، قال ميمون بن مهران: لا خير في الحياة إلا لتائب أو رجل يعمل في الدرجات. يعني أن التائب يمحو بالتوبة ما سلف من السيئات، والعامل يجتهد في علو الدرجات ومن عداهما فهو خاسر كما قال تعالى: (والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فأقسم الله تعالى أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الأوصاف الأربعة: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على الحق. فهذه السورة ميزان للأعمال يزين المؤمن بها نفسه، فيبين له بها ربحه من خسرانه، ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم. رأى بعض

المتقدمين النبي في منامه فقال له أوصني ؟ فقال له: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون، ومن لم يتفقد الزيادة في عمله فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له. قال بعضهم: كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس يشير إلى أنهم كانوا لا يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير، ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه خسرانا. كما قيل:

أليس من تمر بلا نفع

فالمؤمن القائم بشروط الإيمان لا يزداد بطول عمره إلا خيرا، ومن كان كذلك فالحياة خير له من الموت. وفي دعاء النبي : (اللهم اجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر) خرجه مسلم. وفي الترمذي عنه أنه سئل: أي الناس خير ؟ قال: (من طال عمره وحسن عمله. قيل: فأي الناس شر ؟ قال: من طال عمره وساء عمله).

وفي المسند وغيره: (أن نفرا من بني عذرة ثلاثة قدموا النبي فأسلموا فكانوا عند طلحة فبعث النبي بعثا، فخرج فيهم أحدهم فاستشهد، ثم بعث بعثا آخر فخرج منهم فاستشهد ثم مات الثالث على فراشه. قال طلحة: فرأيتهم في الجنة فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد آخرا يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم، فأتيت النبي فذكرت ذلك له فقال: وما أنكرت من ذلك؟ ليس أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله) وفي رواية قال (أليس قد مكث هذا بعده سنة ؟ قالوا: بلى. قال: وأدرك رمضان فصامه ؟ قالوا: بلى قال: وصلى كذا وكذا سجدة في السنة ؟ قالوا: بلى قال: فلما بينهما أبعد ما بين السماء والأرض) قيل لبعض السلف: طاب الموت. قال: لا تفعل. لساعةٌ تعيش فيها تستغفر الله خير لك من موت

الدهر. وقيل لشيخ كبير منهم: تحب الموت ؟ قال: لا. قيل: ولم ؟ قال: ذهب الشباب وشره، وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت: بسم الله. وإذا قعدت قلت: الحمد لله، فأنا أحب أن يبقى لي هذا. وقيل لشيخ آخر منهم: ما بقي مما تحب له الحياة. قال: البكاء على الذنوب. ولهذا كان السلف الصالح يتأسفون عند موتهم على انقطاع أعمالهم عنهم بالموت. وبكى معاذ عند موته وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. وبكى عبد الرحمن بن الأسود عند موته وقال: وا أسفاه على الصوم والصلاة، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات. وبكى يزيد الرقاشي عند موته وقال: أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار، ثم بكى وقال: من يصلي لك يا يزيد بعدك، ومن يصوم ومن يتقرب لك بالأعمال الصالحة، ومن يتوب لك من الذنوب السالفة. وجزع بعضهم عند موته وقال: إنما أبكي على أن يصوم الصائمون لله ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم، ويذكر الذاكرون ولست فيهم، فذلك الذي أبكاني.

تحمل أصحابي ولم وللناس أشجان ولي
أحبكم ما دمت حيا فوا أسفى ممن

في الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (ما من ميت مات إلا ندم، إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون استعتب) إذا كان المحسن يندم على ترك الزيادة فكيف يكون حال المسيء.

رأى بعض المتقدمين في المنام قائلا يقول له:

يا خد إنك إن توسد وسدت بعد الموت
فاعمل لنفسك فلتقدمن غدا إذا لم

ورأى آخر في المنام قائلا يقول له:

إن كنت لا ترتاب ولست لبعد الموت
فعمرك ما يغنى وأسمك في الموتى

رؤي بعض الموتى في المنام فقال: ما عندنا

أكثر من الندامة ولا عندكم أكثر من الغفلة. وجد على قبر مكتوب:

ندمت على ما كان ومن يتبع ما تشتهي
ألم تعلموا أن وأن وراءكم طالبا
فخافوا لكيما ستلقون ربا عادلا
فليس لمغرور سيندم إن زلت له

الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسبيحة وبركعة، ومنهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك، فلا يقدرون على ذلك، قد حيل بينهم وبين العمل، غلقت منهم الرهون. ورؤي بعضهم في المنام فقال: ندمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أوتسبيحتان أوركعة أوركعتان في صحيفة أحدنا أحب إليه من الدنيا وما فيها. قال بعض السلف: كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة. وقال بعضهم: بقية عمر المؤمن لا قيمة له. يعني أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة، وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح، فأما من فرط في بقية عمره فإنه خاسر، فإن ازداد فيه من الذنوب فذلك هو الخسران المبين، الأعمال بالخواتيم من أصلح فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما بقي وما مضى.

يا بائع عمره في معصية الله
إن ساومك الجهل باقي عمر المؤمن

ما مضى من العمر وإن طالت أوقاته، فقد ذهب لذاته وبقيت تبعاته، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته، قال الله عز وجل: (أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) تلا بعض السلف هذه الآية وبكى وقال: إذا جاء الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم. وفي هذا المعنى ما أنشده أبوالعتاهية للرشيد حين بنى قصره واستدعى إليه ندماءه.

عش ما بدا لك ... في ظل شاهقة
يسعى عليك بما ... ت لدى الرواح وفي
فإذا النفوس ... في ضيق حشرجة
فهناك تعلم موقنا ... ما كنت إلا في غرور

وفي صحيح البخاري عن النبي قال: (أعذر الله إلى من بلغه ستين من عمره) وفي الترمذي: (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك) وفي رواية: (حصاد أمتي من بلغ الخمسين فقد تنصف المائة فماذا ينتظر).

لهفي على ... كانت أمامي ثم
لوكان عمري بمائة ... تذكري أني تنصفتها

في بعض الكتب السالفة: إن لله مناديا ينادي كل يوم: أبناء الخمسين! زرع دنا حصاده، أبناء الستين! هلموا إلى الحساب، أبناء السبعين! ماذا قدمتم وماذا أخرتم، أبناء الثمانين! لا عذر لكم. ليت الخلق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، وتجالسوا بينهم فتذاكروا ما عملوا، ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم.

وقال وهب: إن لله مناديا ينادي في السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين زرع دنا حصاده، أبناء الخمسين ماذا قدمتم وما أخرتم، أبناء الستين لا عذر لكم. وفي حديث: (إن الله يقول للحفظة ارفقوا بالعبد ما دامت حداثته، فإذا بلغ الأربعين حققا وتحفظا) فكان بعض رواته يبكي عند روايته ويقول: حين كبرت السن ورقّ العظم وقع التحفظ. قال مسروق: إذا أتتك الأربعون فخذ حذرك. وقال النخعي: كان يقال لصاحب الأربعين احتفظ بنفسك. وكان كثير من السلف إذا بلغ الأربعين تفرغ للعبادة. وقال عمر بن عبد العزيز: تمت حجة الله على ابن الأربعين فمات لها. ورأى في منامه قائلا يقول له:

إذا ما أتتك ... فاخش الإله وكن

يا أبناء العشرين كم مات من أقرانكم وتخلفتم! يا أبناء الثلاثين أصبتم بالشباب على قرب من العهد

فما تأسفتم! يا أبناء الأربعين ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم! يا أبناء الخمسين تنصفتم المائة وما أنصفتم! يا أبناء الستين أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم أتلهون وتلعبون لقد أسرفتم!.

وإذا تكامل للفتى خمسون وهو إلى
عكفت عليه متأخر عنها ولا
وإذا رأى حيا وقال فديت

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك ؟ قال: ستون سنة. قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تصل.

وإن امرءا قد سار إلى منهل من

يا من يفرح بكثرة مرور السنين عليه، إنما تفرح بنقص عمرك. قال أبوالدرداء والحسن رضي الله عنهما: إنما أنت أيام كلما مضى منك يوم مضى بعضك.

إنا لنفرح بالأيام وكل يوم مضى
فاعمل لنفسك قبل فإنما الربح

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره ؟ كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته ؟

نجد سرورا وما هوإلا السيف
إذا قيل تم وترجمة عن شطر

قال الحسن: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم وهي مراحل.

نسير إلى الآجال وأعمارنا تطوى
ترحل من الدنيا فعمرك أيام وهن

قال بعض الحكماء: من كانت الليالي والأيام مطاياه سارتا به وإن لم يسر.

وما هذه الأيام إلا يحث بها حاد إلى
وأعجب شيء منازل تطوى

يا من كلما طال عمره زاد ذنبه! يا من كلما

ابيض شعره بمرور الأيام اسود بالآثام قلبه!.

شيخ كبير له ذنوب تعجز عن حملها
قد بيضت شعره وسودت قلبه

يا من تمر عليه سنة بعد سنة وهو مستثقل في نوم الغفلة والسنة، يا من يأتي عليه عام بعد عام وقد غرق في بحر الخطايا فعام، يا من يشاهد الآيات والعبر كلما توالت عليه الأعوام والشهور، ويسمع الآيات والسور، ولا ينتفع بما يسمع ولا بما يرى من عظائم الأمور، ما الحيلة فيمن سبق عليه الشقاء في الكتاب المسطور!. (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ـ (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور).

خليلي كم من ولكنني لم أنتفع
وكم من ليالي قد لهن وأيام خلت
وكم من سنين قد وكم من أمور قد
ومن لم يزده فذاك الذي لا

فصل

ويلتحق بوظائف شهور السنة الهلالية وظائف فصول السنة الشمسية، وفيه ثلاث مجالس:

المجلس الأول:

في ذكر فصل الربيع.

خرجا في (الصحيحين)من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي قال: إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض. قيل: ما بركات الأرض ؟ قال: زهرة الدنيا. فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت رسول الله حتى ظننت أنه سينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه قال: أين السائل ؟ قال: أنا قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال خضرة حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي

يأكل ولا يشبع) كان النبي يتخوف على أمته من فتح الدنيا عليهم فيخاف عليهم الافتتان بها.

ففي (الصحيحين)عن عمرو بن عوف أن النبي قال للأنصار لما جاءه مال من البحرين: أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) وكان آخر خطبة خطبها على المنبر حذر فيها من زهرة الدنيا، ففي (الصحيحين)عن عقبة بن عامر أن النبي صعد المنبر فقال: إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم) قال عقبة: فكان آخر ما رأيت من رسول الله على المنبر وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن النبي قال: (إذا افتتحت عليكم خزائن فارس والروم أي قوم أنتم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عز وجل. فقال رسول الله : أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون). وفي المسند عن عمر عن النبي قال: (لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة). قال عمر:وأنا أشفق من ذلك. وفيه أيضا عن أبي ذر: أن أعرابيا قال: يا رسول الله أكلتنا الضبع يعني السنة والجدب. فقال النبي : (غير ذلك أخوف مني عليكم حين تصب عليكم الدنيا صبا، فليت أمتي لا يلبسون الذهب) وفي رواية الديباج وفيه أيضا عن أبي هريرة عن النبي قال: (ما أخشى عليكم الفقر، ولكني أخشى عليكم التكاثر).

ويروى من حديث عوف بن مالك وأبي الدرداء عن النبي قال: (الفقر تخافون؟! والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي) وفي رواية عوف: (فإن

الله فاتح عليكم فارس والروم) وفي المعنى أحاديث أخر وفي الترمذي أنه قال: (لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال).

فقوله في حديث أبي سعيد الخدري: (إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض) ثم فسره بزهرة الدنيا، ومراده: ما يفتح على أمته منها من ملك فارس والروم وغيرهم من الكفار الذين ورثت هذه الأمة ديارهم وأموالهم وأراضيهم التي تخرج منها زروعهم وثمارهم وأنهارهم ومعادنهم وغير ذلك مما يخرج من بركات الأرض، وهذا من أعظم المعجزات وهو إخباره بظهور أمته على كنوز فارس والروم وأموالهم وديارهم ووقع على ما أخبر به، ولكنه لما سمى ذلك ببركات الأرض وأخبر أنه أخوف ما يخافه عليهم أشكل ذلك على بعض من سمعه، حيث سماه بركة ثم خاف منه أشد الخوف، فإن البركة إنما هي خير ورحمة، و وقد سمى الله تعالى المال خيرا في مواضع كثيرة من القرآن فقال تعالى: (وإنه لحب الخير لشديد) وقال: (إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) فلما سأله السائل: هل يأتي الخير بالشر صمت النبي حتى ظنوا أنه أوحي إليه، والظاهر أن الأمر كان كذلك، ويدل عليه أنه ورد في رواية لمسلم في هذا الحديث: (فأفاق يمسح عنه الرحضاء) - وهو العرق - وكان النبي إذا أوحي إليه يتحدر منه مثل الجمان من العرق من شدة الوحي وثقله عليه، وفي هذا دليل على أنه كان إذا سئل عن شيء لم يكن أوحي إليه فيه شيء انتظر الوحي فيه ولم يتكلم فيه بشيء حتى يوحى إليه فيه، فلما نزل عليه جواب ما سئل عنه قال: أين السائل ؟ قال: ها أنا. فقال النبي : (إن الخير لا يأتي إلا بالخير) وفي رواية لمسلم فقال: (أو خير هو؟) وفي ذلك دليل على: أن المال ليس بخير على الإطلاق بل منه خير

ومنه شر، ثم ضرب مثل المال ومثل من يأخذه بحقه ويصرفه في حقه، ومن يأخذه من غير حقه ويصرفه في غير حقه، فالمال في حق الأول خير، وفي حق الثاني شر، فتبين بهذا أن المال ليس بخير مطلق بل هو خير مقيد، فإن استعان به المؤمن على ما ينفعه في آخرته كان خيرا له، وإلا كان شرا له، فأما المال فقال: (إنه خضرة حلوة)، وقد وصف المال والدنيا بهذا الوصف في أحاديث كثيرة:

ففي (الصحيحين)عن حكيم بن حزام أنه سأل النبي فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله، فقال له النبي : يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع) وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي قال: (إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) واستخلافهم فيها هو ما أورثهم الله منها مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارس والروم، وحذرهم من فتنة الدنيا وفتنة النساء خصوصا، فإن النساء أول ما ذكره الله من شهوات الدنيا ومتاعها في قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا)، وفي المسند والترمذي عن خولة بنت قيس عن النبي قال: (إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أصابه بحقه بورك له فيه، ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار).

وفي المسند أيضا عن خولة بنت ثامر الأنصارية عن النبي قال: (إن الدنيا خضرة حلوة وإن رجالا سيخوضون في مال الله بغير حق، لهم النار يوم القيامة) وخرج البخاري من قوله: (إن رجالا) إلى

آخره. وفي المسند أيضا عن عائشة عن النبي قال: (إن هذه الدنيا خضرة حلوة، فمن آتيناه منها شيئا بطيب نفس أو طيب طعمة ولا إسراف بورك له فيه، ومن آتيناه منها شيئا بغير طيب نفس منا وغير طيب طعمة وإسراف منه لم يبارك له فيه) وفي المعنى أحاديث أخر.

وقوله : (إن مما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا أكلة الخضر) مثل آخر ضربه لزهرة الدنيا وبهجة منظرها وطيب نعيمها وحلاوته في النفوس، فمثله كمثل نبات الربيع، وهو المرعى الخضر الذي ينبت في زمان الربيع، فإنه يعجب الدواب التي ترعى فيه وتستطيبه وتكثر من الأكل منه أكثر من قدر حاجتها لاستحلائها له، فإما أن يقتلها فتهلك وتموت حبطا، والحبط: انتفاخ البطن من كثرة الأكل أو يقارب قتلها، ويلم به فتمرض منه مرضا مخوفا مقاربا للموت. فهذا مثل من يأخذ من الدنيا بشره وجوع نفس من حيث لاحت له لا بقليل يقنع، ولا بكثير يشبع، ولا يحلل ولا يحرم، بل الحلال عنده ما حل بيده وقدر عليه، والحرام عنده ما منع منه وعجز عنه. فهذا هو المتخوض في مال الله ورسوله فيما شاءت نفسه وليس له إلا النار يوم القيامة، كما في حديث خولة المتقدم. والمراد بمال الله ومال رسوله: الأموال التي يجب على ولاة الأمور حفظها وصرفها في طاعة الله ورسوله من أموال الفيء والغنائم، ويتبع ذلك مال الخراج والجزية، وكذلك أموال الصدقات التي تصرف للفقراء والمساكين كمال الزكاة والوقف ونحو ذلك. وفي هذا تنبيه على أن من تخوض من الدنيا في الأموال المحرم أكلُها، كمال الربا، ومال الأيتام الذي من أكله أكل نارًا، والمغصوب، والسرقة، والغش في البيوع، والخداع، والمكر، وجحد الأمانات، والدعاوى الباطلة ونحوها من الحيل المحرمة أولى أن يتخوض صاحبها في نار جهنم غدا، فكل هذه الأموال وما أشبهها يتوسع بها أهلها في الدنيا، ويتلذذون بها ويتوصلون بها إلى لذات

الدنيا وشهواتها، ثم ينقلب ذلك بعد موتهم فيصير جمرا من جمر جهنم في بطونهم، فما تفي لذتها بتبعها كما قيل:

تفنى اللذاذة ممن ... من الحرام ويبقى
تبقى عواقب سوء ... لا خير في لذة من

فلهذا شبه النبي من يأخذها بغير حقها ويضعها في غير حقها بالبهائم الراعية من خضراء الربيع حتى تنتفخ بطونها من أكله، فإما أن يقتلها وإما أن يقارب قتلها، فكذلك من أخذ الدنيا من غير حقها ووضعها في غير وجهها إما أن يقتله ذلك فيموت به قلبه ودينه، وهو من مات على ذلك من غير توبة منه وإصلاح حال فيستحق النار بعمله، قال الله تعالى: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) وهذا هو الميت حقيقة، فإن الميت من مات قلبه. كما قيل:

ليس من مات ... إنما الميت ميت

وإما أن يقارب موته ثم يعافى وهو من أفاق من هذه السكرة وتاب وأصلح عمله قبل موته، وقد قال علي رضي الله عنه في كلامه المشهور في أقسام جملة العلم:أو منهوم باللذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار، وليسوا من رعاة الدين، أقرب شبهابهم الأنعام السارحة، وفي الأبيات المشهورة التي كان عمر بن عبد العزيز ينشدها كثيرا:

نهارك يا مغرور ... وليلك نوم والردى
وتتعب فيما سوف ... كذلك في الدنيا

وإما استثناؤه من ذلك: (آكلة الخضِر). فمراده بذلك مثل المقتصد الذي يأخذ من الدنيا بحقها مقدار حاجته، فإذا نفذ واحتاج عاد إلى الأخذ منها قدر الحاجة بحقه. وآكلة الخضر: دويبة تأكل من الخضر بقدر حاجتها إذا احتاجت إلى الأكل، ثم تصرفه عنها. فتستقبل عين الشمس فتصرف بذلك ما في بطنها وتخرج منه ما يؤذيها من الفضلات وقد قيل: إن الخضر ليس من نبات الربيع عند

العرب، إنما هو من كلاء الصيف بعد يبس العشب وهيجه واصفراره، والماشية من الإبل لا تستكثر منه بل تأخذ منه قليلا قليلا، ولا تحبط بطونها منه. فهذا مثل المؤمن المقتصد من الدنيا يأخذ من حلالها وهو قليل بالنسبة إلى حرامها قدر بلغته وحاجته، ويجتزي من متاعها بأدونه وأخشنه ثم لا يعود إلى الأخذ منها إلا إذا نفذ ما عنده، وخرجت فضلاته، فلا يوجب له هذا الأخذ ضررا ولا مرضا ولا هلاكا، بل يكون ذلك بلاغا له ويتبلغ به مدة حياته ويعينه على التزود لآخرته، وفي هذا إشارة إلى مدح من أخذ من حلال الدنيا بقدر بلغته وقنع بذلك، كما قال : (قد أفلح من هداه الله إلى الإسلام وكان عيشه كفافا فقنع به). وقال : (خير الرزق ما يكفي) وقال: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا).

خذ من الرزق ما ومن العيش ما
كل هذا سينقضي كسراج إذا انطفا

ثم قال : (إن هذا المال خضرة حلوة) فأعاده مرة ثانية تحذيرا من الإغترار به، فخضرته منظرة وحلاوته طيب طعمه، فلذلك تشتهيه النفوس، وتسارع إلى طلبه، ولكن لو فكرت في عواقبه لهربت منه. الدنيا في الحال حلوة خضرة، وفي المآل مرة كدرة، نعمت المرضعة وبئست الفاطمة.

إنما الدنيا نهار ضوءه ضوء معار
بينما عيشك غض ناعم فيه اخضرار
إذ رماه زمناه فإذا فيه اصفرار
وكذلك الليل يأتي ثم يمحوه النهار

مثل حرام الدنيا كشجرة الدفلى، تعجب من رآها، وتقتل من آكلها.

نرى الدنيا وما يخلومن
فضول العيش وأكثر ما يضرك ما
أذا اتفق القليل فلا ترد الكثير

الذي بشر أمته بفتح الدنيا عليهم حذرهم من الاغترار بزهرتها، وخوفهم من خضرتها وحلاوتها،

وأخبرهم بخرابها وفنائها، وأن بين أيديهم دارا لا تنقطع خضرتها وحلاوتها، فمن وقف مع زهرة هذه العاجلة انقطع وهلك، ومن لم يقف معها وسار إلى تلك وصل ونجا. في المسند عن ابن عباس: (أن النبي أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: اضرب له مثلا. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر، انتهو إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذا أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء أتتبعوني ؟ قالوا: نعم. قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة، وحياضا رواءً، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء، أن تتبعوني ؟ قالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه، فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه) وقد خرجه ابن أبي الدنيا وغيره من الحسن مرسلا بسياق أبسط من هذا وفيه: (إنهم لما رتعوا وسمنوا وأعجبهم المنزل صاح بهم فقال: ارتحلوا فإن هذه الروضة ذاهبة، وإن هذا الماء غائر ذاهب، وإن أمامكم روضة أعشب من هذه، وماء أروى من هذا الماء، فكره ذلك عامة الناس وقالوا: ما نريد بهذه بدلا وهم أكثر الناس، وقال آخرون: والله إن آخر قوله كأوله ارتحلوا، فأبوا فارتحل قوم فنجوا، ولم يشعر الذين أقاموا حتى طرقهم العدو ليلا فأصبحوا بين أسير وقتيل).

الدنيا: خضراء الدمن، ومعنى ذلك أن خضرتها نابتة على مزبلة منتنة، يا دني الهمة قنعت بروضة على مزبلة، والملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى: (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) أرضيتم بخرابات البلى في الفردوس الأعلى، يا لها صفقة غبن أتقنع

بخسائس الحشائش والرياض معشبة بين يديك.

وقوله : (من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع).

تقسيم لمن يأخذ المال على قسمين:

فأحدهما: يشبه حال آكلة الخضر وهو من أخذه بحقه ووضعه في حقه، وذكر أنه نعم المعونة هو، فإنه نعم العون لمن هذه صفته على الآخرة، كما في حديث عمرو بن العاص عن النبي قال: نعم المال الصالح للرجل الصالح)، وهو الذي يأخذ بحقه ويضعه في حقه فهذا يوصله ماله إلى الله عز وجل، فمن أخذ من المال بحقه ما يقويه على طاعة الله ويستعين به عليها كان أخذه طاعة، ونفقته طاعة. وفي الحديث الصحيح عن النبي قال: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك) وفي حديث آخر: (ما أطعمت نفسك فهولك صدقة، وما أطعمت أهلك فهولك صدقة، وما أطعمت ولدك فهولك صدقة، وما أطعمت خادمك فهولك صدقة). فما أخذ من الدنيا بنية التقوي على طلب الآخرة فهو داخل في قسم إرادة الآخرة والسعي لها لا في إرادة الدنيا والسعي لها.

قال الحسن: ليس من حب الدنيا طلبك ما يصلحك فيها، ومن زهدك فيها ترك الحاجة يسدها عنك تركها، ومن أحب الدنيا وسرته ذهب خوف الآخرة من قلبه، وقال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس متاع الغرور ولكنه بلاغ إلى ما هو خير منه. وقال بعض العارفين: كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا. وقال أبوسليمان: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسبحان من جعل شيئا واحدا سببا للاتصال به والانقطاع عنه.

والقسم الثاني: يشبه حاله حال البهائم التي ترعى مما ينبت الربيع (فيقتلها حبطا أو يلم) وهو

من يأخذ المال بغير حقه فيأخذه من الوجوه المحرمة، فلا يقنع منه بقليل ولا بكثير، ولا يشبع نفسه منه. ولهذا قال: (وكان كالذي يأكل ولا يشبع) (وكان النبي يتعوذ من نفس لا تشبع) وحديث زيد بن ثابت عن النبي قال: (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له) فمن كان فقره بين عينيه لم يزل خائفا من الفقر، لا يستغنى قلبه بشيء ولا يشبع من الدنيا، فإن الغنى غنى القلب، والفقر فقر النفس. وفي حديث خرجه الطبراني مرفوعا: (الغنى في القلب، والفقر في القلب، ومن كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له منها، وإنما يضر نفسه) وعن عيسى عليه السلام قال: (مثل طالب الدنيا كشارب البحر، كلما زاد شربا منه زاد عطشا حتى يقتله) قال يحيى بن معاذ: من كان غناه في قلبه لم يزل غنيا، ومن كان غناه في كسبه لم يزل فقيرا، ومن قصد المخلوقين لحوائجه لم يزل محروما، ويشهد لذلك كله الحديث الصحيح عن النبي : (لوكان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب) لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا لقنع، ولو تذكر الجائع إلى فضول مآلها لشبع.

هب أنك قد ملكت ودان لك العباد
أليس إذاً مصيرك ويحثي الترب هذا

وقد ضرب الله في كتابه مثل الدنيا وخضرتها ونضرتها وبهجتها وسرعة تقلبها وزوالها، وجعل مثلها كمثل نبات الأرض النابت من مطر السماء في تقلب أحواله ومآله قال الله تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) وقال تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء

فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) وقال تعالى: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقال تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب) فالدنيا وجميع ما فيها من الخضرة والبهجة والنضرة تتقلب أحواله وتتبدل، ثم تصير حطاما يابسا، وقد عدد الله سبحانه زينة الدنيا ومتاعها المبهج، في قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) وهذا كله يصير ترابا ما خلا الذهب والفضة، ولا ينتفع بأعيانهما، بل هما قيم الأشياء فلا ينتفع صاحبهما بإمساكهما، وإنما ينتفع بإنفاقهما، ولهذا قال الحسن: بئس الرفيق الدرهم والدينار لا ينفعانك حتى يفارقانك، وأجسام بني آدم بل وسائر الحيوانات كنبات الأرض تنقلب من حال إلى حال، ثم تجف وتصير ترابا قال الله تعالى: (والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا)

وما المرء إلا يعود رفاتا بعد ما
فينتقل ابن آدم من الشباب إلى الهرم، ومن الصحة إلى السقم، ومن الوجود إلى العدم. كما قيل:

وما حالاتنا إلا ثلاث شباب ثم شيب ثم
وآخر ما يسمى ويتلوه من

مدة الشباب قصيرة كمدة زهر الربيع وبهجته ونضارته، فإذا يبس وابيض فقد آن ارتحاله، كما أن الزرع إذا ابيض فقد آن حصاده، وأجمل زهور الربيع الورد، ومتى كثر فيه البياض فقد قرب زمان انتقاله. قال وهيب بن الورد: إن لله ملكا ينادي في السماء كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده! وفي حديث مرفوع: (إن لكل شيء حصادا، وحصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين).

قد يبلغ الزرع لا بد للزرع من

وقد يدرك الزرع آفة قبل بلوغ حصاده فيهلك كما أشير إليه في قوله تعالى: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) قال ميمون بن مهران لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا الحصاد فنظر إلى الشباب فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد. وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب، وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.

أيا ابن آدم لا عليك صافية

ما أنت إلا كزرع بكل شيء من

فإن سلمت من فأنت عند كمال

كل ما في الدنيا فهو مذكر بالآخرة، ودليل عليه فنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد محولها، ويبسها في الشتاء وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشبا يابسا يدل على بعث الموتى من الأرض، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في مواضع كثيرة، قال الله تعالى: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) وقال الله تعالى: (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك

الخروج) وقال الله تعالى: (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) قال أبو رزين للنبي : كيف يحي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال: (هل مررت بواد أهلك محلا، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال: نعم. قال: كذلك يخرج الله الموتى وذلك آيته في خلقه) خرجه الإمام أحمد. وقصر مدة الزرع والثمار وعود الأرض بعد ذلك إلى يبسها، والشجر إلى حالها الأول كعود ابن آدم بعد كونه حيا إلى التراب الذي خلق منه، وفصول السنة تذكر بالآخرة، فشدة حر الصيف يذكر بحر جهنم، وهو من سمومها وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم، وهو من زمهريرها والخريف يكمل فيه اجتناء ثمرات الأعمال في الآخرة، وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة، وهو يذكر بنعيم الجنة وطيب عيشها، وينبغي أن يحث المؤمن على الاستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة.

كان بعض السلف يخرج في أيام الرياحين والفواكه إلى السوق فيقف وينظر ويعتبر ويسأل الله الجنة، ومرّ سعيد بن جبير بشباب من أبناء الملوك جلوس في مجالسهم في زينتهم فسلموا عليه، فلما بعد عنهم بكى واشتد بكاؤه، وقال: ذكرني هؤلاء بشباب أهل الجنة. يا هذا تزوج صلة بن أشيم بمعاذة العدوية وكانا من كبار الصالحين، فأدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله على زوجته في بيت مطيب منجد، فقاما يصليان إلى الصباح فسأله ابن أخيه عن حاله؟ فقال: أدخلتني بالأمس بيتا أذكرتني به النار يعني الحمام، وأدخلتني الليلة بيتا أذكرتني به الجنة، فلم يزل فكري في الجنة والنار إلى الصباح.

دعا عبد الواحد بن زيد إخوانه إلى طعام صنعه إليهم فقام على رؤوسهم عتبة الغلام يخدمهم وهو صائم، وهم يأكلون فجعلت عيناه تهملان فسأله عبد الواحد عن سبب بكائه ؟ فقال: ذكرت مواد أهل

الجنة إذا أكلوا وقام الولدان على رؤوسهم، إنما خلقت الدنيا مرآة لننظر بها إلى الآخرة لا لننظر إليها ونوقف معها.

كفى حزنا أن لا من الأرض إلا ازددت
وإني متى ما طاب تذكرت أياما مضت

تدقيق النظر والفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه، وكمال قدرته ورحمته، فتزداد القلوب هيمانا في محبته، وإلى ذلك الإشارة بقوله: (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) زمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة موجده، وكمال قدرته، ويشوق إلى طيب مجاورته في دار كرامته، كما قال ابن سمعون في وصف الربيع: أرضه حرير، وأنفاسه عبير، وأوقاته كلها وعظ وتذكير.

وقال غيره:

يا قومنا فاح ولاح للأحباب يحدو
الزهر مسك والريا ض أريضة والماء
والظل منثور وفي جيد الشقائق منه
هذا النسيم وعنبر وضباب هذا اللؤلؤ
والغصن يرقص ر مصفق والورق
والجوبعض منه يا قوت وبعض لا
والكل يشهد أن صـ انعه قدير وهو فرد

ولبعضهم في وصف زمان الربيع:

الطل في سلك رطب يصافحه
والطير يقرأ والريح يكتب

رؤي بعض الشعراء المتقدمين في المنام بعد موته فسئل عن حاله ؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات إلى آثار ما صنع
عيون من لجين بأحداق هي الذهب
على قضب بأن الله ليس له
سبحان من سبحت المخلوقات بحمده فملأ الأكوان تحميده، وأفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته، فوضح توحيده، يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، ويمجده رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيطرب السامع تمجيده، كلما درس الهزار درس شكره فالبلبل بالحمد معيده، وكلما أقام خطيب الحمام النوح على الدوح هيج المستهام نوحه وتغريده: (أولم يروا كيف يبديء الله الخلق ثم يعيده).

واعجبا للمتقلب بين مشاهدة حكمه وتناول نعمه، ثم لا يشكر نعمه، ولا يبصر حكمه، وأعجب من ذلك أن يعصي المنعم بنعمه هذا، عود شجر الكرم يكون يابسا طول الشتاء، ثم إذا جاء الربيع دبّ فيه الماء واخضر، ثم يخرج الحصرم، فينتفع الناس به حامضا، ويتناولون منه طبخا واعتصارا، ثم ينقلب حلوا فينتفع الناس به حلوا رطبا ويابسا
ويستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طول العام، وما يأتدمون بحمضه وهو نعم الإدام، فهذه التنقلات توجب للعاقل الدهش والتعجب من صنع صانعه، وقدرة خالقه، فينبغي له أن يفرغ عقله للتفكر في هذه النعم والشكر عليها، وأما الجاهل فيأخذ العنب فيجعله خمرا، فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يستعمل في الفكر والشكر، حتى ينسى خالقه المنعم عليه بهذه النعم كلها، فلا يستطيع بعد السكر أن يذكره أو يشكره بل ينسى من خلقه ورزقه فلا يعرفه في شكره بالكلية، وهذه نهاية كفر النعم.

فواعجبا كيف ه أم كيف يجحده
ولله في كل وتسكينة أبدا
وفي كل شيء له تدل على أنه واحد

ومن وجوه الاعتبار في النظر إلى الأرض التي

أحياها الله بعد موتها في فصل الربيع بما ساق إليها من قطر السماء أنه يرجى من كرمه أن يحيي القلوب الميتة بالذنوب وطول الغفلة بسماع الذكر النازل من السماء، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) إلى قوله: (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) ففيه إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر. عسى لمحة من لمحات عطفه ونفحة من نفحات لطفه وقد صلح من القلوب كل ما فسد.

عسى فرج يأتي به ... له كل يوم في
إذا اشتد عسر ... قضى الله إن

عسى من أحيا الأرض الميتة بالقطر أن يحي القلوب الميتة بالذكر، عسى نفحة من نفحات رحمته تهب، فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا.

إذا ما تجدد فصل ... تجدد للقلب فضل
عسى الحال يصلح ... كما الأرض تهتز
ومن ذا الذي ليس ... وربع عطائك رحب

المجلس الثاني:
في ذكر فصل الصيف

خرجا في (الصحيحين)من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفَسَين نفَسٌ في الشتاء ونفسٌ في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من سموم جهنم، وأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم) لا شك أن الله تعالى خلق لعباده دارين يجزيهم فيها بأعمالهم مع البقاء في الدارين من غير موت، وخلق دارا معجلة للأعمال وجعل فيها موتا وحياة، وابتلى عباده فيها بما أمرهم به ونهاهم عنه، وكلفهم فيها الإيمان بالغيب. ومنه: الإيمان بالجزاء والدارين المخلوقتين له وأنزل بذلك الكتب وأرسل به

الرسل، وأقام الأدلة الواضحة على الغيب الذي أمر بالإيمان به وأقام علامات وأمارات تدل على وجود داري الجزاء فإن إحدى الدارين المخلوقتين للجزاء دار نعيم محض لا يشوبه ألم، والأخرى دار عذاب محض لا يشوبه راحة، وهذه الدار الفانية ممزوجة بالنعيم والألم، فما فيها من النعيم يذكر بنعيم الجنة، وما فيها من الألم يذكر بألم النار، وجعل الله تعالى في هذه الدار أشياء كثيرة تذكر بدار الغيب المؤجلة الباقية، فمنها ما يذكر بالجنة من زمان ومكان، أما الأماكن فخلق الله بعض البلدان كالشام وغيرها فيها من المطاعم والمشارب والملابس وغير ذلك من نعيم الدنيا ما يذكر بنعيم الجنة، وأما الأزمان: فكزمن الربيع فإنه يذكر طيبه بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات الأسحار فإن بردها يذكر ببرد الجنة، وفي الحديث الذي خرجه الطبراني: (إن الجنة تفتح في كل ليلة في السحر فينظر الله إليها فيقول لها: ازدادي طيبا لأهلك فتزداد طيبا، فذلك برد السحر الذي يجده الناس) وروى سعيد الجريري عن سعيد بن أبي الحسن أن داود عليه السلام قال: يا جبريل أي الليل أفضل ؟ قال: ما أدري غير أن العرش يهتزّ إذا كان من السحر، ألا ترى أنه يفوح ريح كل الشجر، ومنها ما يذكر بالنار، فإن الله تعالى جعل في الدنيا أشياء كثيرة تذكر بالنار المعدة لمن عصاه، وما فيها من الآلام والعقوبات من أماكن وأزمان وأجسام وغير ذلك، أما الأماكن فكثير من البلدان مفرطة الحر أو البرد، فبردها يذكر بزمهرير جهنم، وحرها يذكر بحر جهنم وسمومها، وبعض البقاع يذكر بالنار كالحمّام، قال أبوهريرة: نعم البيت الحمام يدخله المؤمن فيزيل به الدرن، ويستعيذ بالله فيه من النار.

كان السلف يذكرون النار بدخول الحمام فيحدث لهم ذلك عبادة دخل ابن وهب الحمّام فسمع تاليا يتلو: (وإذ يتحاجون في النار) فغشي عليه، وتزوج صلة بن أشيم فدخل الحمّام ثم دخل على زوجته تلك الليلة، فقام يصلي حتى أصبح وقال: دخلت بالأمس بيتا أذكرني النار، ودخلت

الليلة بيتا ذكرت به الجنة، فلم يزل فكري فيهما حتى أصبحت. كان بعض السلف إذا أصابه كرب الحمّام يقول: يا بر يا رحيم منّ علينا، وقنا عذاب السموم. صب بعض الصالحين على رأسه ماء من الحمّام فوجده شديد الحر فبكى وقال: ذكرت قوله تعالى: (يصبّ ن فوق رؤوسهم الحميم) كل ما في الدنيا يدل على صانعه ويذكر به ويدل على صفاته،فما فيها من نعيم وراحة يدل على كرم خالقه وفضله وإحسانه وجوده ولطفه،وما فيها من نقمة وشدة وعذاب يدل على شدة بأسه وبطشه وقهره وانتقامه، واختلاف أحوال الدنيا من حر وبرد وليل ونهار وغير ذلك يدل على انقضائها وزوالها.قال الحسن: كانوا يعني الصحابة يقولون: الحمد لله الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقا دائما لا ينصرف لقال الشاك في الله: لوكان لهذا الخلق رب لحادثه وإن الله قد حادث بما ترون من الآيات أنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشا و(سراجا وهاجا) ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكنا ونجوما وقمرا منيرا، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق ما شاء، وإن شاء صرف ذلك الخلق، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربا يحادثه بما ترون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة.

وقال خليفة العبدي: لو أن الله لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فطبق كل شيء وملأ كل شيء، ومحا سلطان النهار وتفكروا في مجيء هذا النهار إذا جاء فملأ كل شيء، وطبق كل شيء ومحا سلطان الليل وتفكروا في (السحاب المسخر بين السماء والأرض) وتفكروا في (الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) وتفكروا في مجيء الشتاء والصيف، فو الله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق لهم ربهم حتى أيقنت قلوبهم، وحتى

كأنما عبدوا الله عن رؤيته، ما رأى العارفون شيئا من الدنيا إلا تذكروا به ما وعد الله به من جنسه في الآخرة، من كل خير وعافية.

قلوب العارفين ترى ما لا يراه

وأما الأزمان فشدة الحر والبرد يذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير، وقد دل هذا الحديث الصحيح على: أن ذلك من تنفس النار في ذلك الوقت. قال الحسن: كل برد أهلك شيئا فهو من نفس جهنم، وكل حر أهلك شيئا فهو من نفس جهنم. وفي الحديث الصحيح أيضا عن النبي قال: (إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم).

وفي حديث مرفوع خرجه عثمان الدارمي وغيره: (إذا كان يوم شديد الحر فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم، اللهم أجرني من حر جهنم. قال الله لجهنم: إن عبدا من عبادي قد استجار بي منك وقد أجرته، وإذا كان يوم شديد البرد فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم. قال الله لجهنم: إن عبدا من عبادي قد استجار بي من زمهريرك، وإني أشهدك أني قد أجرته، قالوا: وما زمهرير جهنم؟ قال: بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده) أبواب النار مغلقة وتفتح أحيانا فتفتح أبوابها كلها عند الظهيرة، ولذلك يشتد الحر حينئذ فيكون في ذلك تذكرة بنار جهنم، وأما الأجسام المشاهدة في الدنيا المذكرة بالنار فكثيرة منها الشمس عند اشتداد حرها. وقد روي أنها خلقت من النار وتعود إليها وخرج الطبراني بإسناده أن رجلا في عهد النبي نزع ثيابه ثم تمرغ في الرمضاء وهو يقول لنفسه: ذوقي نار جهنم أشد حرا جيفة بالليل يطال بالنهار فرآه النبي فقال: (يا رسول الله غلبتني نفسي. فقال النبي : لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله بك الملائكة) وأما البروز للشمس تعبدا بذلك فغير مشروع (فإن النبي قال لأبي

إسرائيل لما رآه قائما في الشمس: فأمره أن يجلس ويستظل، وكان نذر أن يقوم في الشمس مع الصوم فأمره أن يتم صومه فقط) وإنما يشرع البروز للشمس للمحرم كما قال ابن عمر رضي الله عنهما لمحرم رآه قد استظل: أضح لمن أحرمت له أي ابرز إلى الضحاء، وهو حر الشمس. كان بعضهم إذا أحرم لم يستظل فقيل له لوأخذت بالرخصة فأنشد:

ضحيت له كي إذا الظل أضحى
فوا أسفا إن كان ووا أسفا إن كان

ومما يؤمر بالصبر فيه على حر الشمس النفر للجهاد في الصيف، كما قال تعالى عن المنافقين: (وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) وكذلك في المشي إلى المساجد للجمع والجماعات وشهود الجنائز ونحوها من الطاعات والجلوس في الشمس لانتظار ذلك حيث لا يوجد ظل. خرج رجل من السلف إلى الجمعة فوجد الناس قد سبقوه إلى الظل فقعد في الشمس، فناداه رجل من الظل أن يدخل إليه، فأبى أن يتخطى الناس لذلك ثم تلا: (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) كان بعضهم إذا رجع من الجمعة في حر الظهيرة يذكر انصراف الناس من موقف الحساب إلى الجنة أو النار فإن الساعة تقوم في يوم الجمعة، ولا ينتصف ذلك النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. قاله ابن مسعود وتلا قوله: (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وينبغي لمن كان في حر الشمس أن يتذكر حرها في الموقف، فإن الشمس تدنو من رؤوس العباد يوم القيامة ويزاد في حرها، وينبغي لمن لا يصبر على حر الشمس في الدنيا أن يجتنب من الأعمال ما يستوجب صاحبه به دخول النار، فإنه لا قوة لأحد عليها ولا صبر. قال قتادة: وقد ذكر شراب أهل جهنم وهو ماء يسيل من صديدهم من الجلد واللحم، فقال:

هل لكم بهذا يدان أم لكم عليه صبر طاعة الله أهون عليكم، يا قوم فأطيعوا الله ورسوله.

نسيت لظى عند وأنت توقى حر
كأنك لم تدفن له في سياق

رأى عمر بن عبد العزيز قوما في جنازة قد هربوا من الشمس إلى الظل وتوقوا الغبار فبكى ثم أنشد:

من كان حين تصيب أو الغبار يخاف
ويألف الظل كي فسوف يسكن يوما
في ظل مقفرة يطيل تحت الثرى
تجهزي بجهاز تبلغين يا نفس قبل الردى

ومما يضاعف ثوابه في شدة الحر من الطاعات: الصيام لما فيه من ظمأ الهواجر، ولهذا كان معاذ بن جبل يتأسف عند موته على ما يفوته من ظمأ الهواجر، وكذلك غيره من السلف، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يصوم في الصيف ويفطر في الشتاء، ووصى عمر رضي الله عنه عند موته ابنه عبد الله فقال له: عليك بخصال الإيمان وسمى أولها: الصوم في شدة الحر في الصيف. قال القاسم بن محمد: كانت عائشة رضي الله عنها تصوم في الحر الشديد، قيل له: ما حملها على ذلك ؟ قال: كانت تبادر الموت. وكان مجمع التيمي يصوم في الصيف حتى يسقط. كانت بعض الصالحات تتوخى أشد الأيام حرا فتصومه، فيقال لها في ذلك؟ فتقول: إن السعر إذا رخص اشتراه كل أحد. تشير إلى أنها لا تؤثر إلا العمل الذي لا يقدر عليه إلا قليل من الناس لشدته عليهم، وهذا من علو الهمة.

كان أبوموسى الأشعري في سفينة فسمع هاتفا يهتف: يا أهل المركب قفوا يقولها ثلاثا. فقال أبوموسى: يا هذا كيف نقف! ألا ترى ما نحن فيه، كيف نستطيع وقوفا؟ فقال الهاتف: ألا أخبركم بقضاء الله على نفسه ؟ قال: بلى! أخبرنا. قال: فإن الله قضى على نفسه أنه من

عطّش نفسه لله في يوم حار كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة، فكان أبوموسى يتوخى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ منه فيصومه. قال كعب: إن الله تعالى قال لموسى: إني آليت على نفسي أنه من عطش نفسه لي أن أرويه يوم القيامة. وقال غيره: مكتوب في التوراة طوبى لمن جوّع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن عطش نفسه ليوم الري الأكبر.

قال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكىء معها على نهر الخمر في الجنة تعاطيه الكأس في أنعم عيشه: أتدري أي يوم زوجنيك الله؟ إنه نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين، وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش، فباهى بك الملائكة وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي، رغبة فيما عندي، اشهدوا أني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك. لما سار عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام كان معاوية يسأله أن يرفع إليه حوائجه فيأبى، فلما أكثر عليه قال: حاجتي أن ترد عليّ من حر البصرة لعل الصوم أن يشتدّ عليّ شيئا، فإنه يخف عليّ في بلادكم. نزل الحجاج في بعض أسفاره بماء بين مكة والمدينة فدعا بغدائه، ورأى أعرابيا فدعاه إلى الغداء معه، فقال: دعاني من هو خير منك فأجبته. قال: ومن هو؟ قال: الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت. قال: في هذا الحر الشديد ؟ قال: نعم صمت ليوم أشد منه حرا، قال: فأفطر وصم غدا، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد، قال: ليس ذلك إليّ، قال: فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه!.

خرج ابن عمر في سفر معه أصحابه فوضعوا سفرة لهم، فمر بهم راع فدعوه إلى أن يأكل معهم قال: إني صائم. فقال ابن عمر: في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وأنت صائم ؟ فقال: أبادر أيامي هذه الخالية. فعجب منه ابن عمر فقال له ابن عمر: هل لك أن

تبيعنا شاة من غنمك ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب؟ فمضى الراعي وهو رافع أصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله؟. فلم يزل ابن عمر يردد كلمته هذه، فلما قدم المدينة بعث إلى سيد الراعي فاشترى منه الراعي والغنم، فأعتق الراعي ووهب له الغنم. نزل روح بن زنباع منزلا بين مكة والمدينة في حر شديد، فانقضّ عليه راع من جبل. فقال له: يا راع هلم إلى الغداء. قال: إني صائم قال: أفتصوم في هذا الحر ؟ قال: أفأدع أيامي تذهب باطلا؟ فقال روح: لقد ضننت بأيامك يا راعي إذ جاد بها روح بن زنباع. كان ابن عمر يصوم تطوّعا فيغشى عليه، فلا يفطر. وكان الإمام أحمد يصوم حتى يكاد يغمى عليه، فيمسح على وجهه الماء. وسئل عن من يصوم فيشتد عليه الحر؟ قال: لا بأس أن يبل ثوبا يتبرد به، ويصب عليه الماء.

كان النبي بالعرج يصب على رأسه الماء وهو صائم، وكان أبوالدرداء يقول: صوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور، وفي (الصحيحين)عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا مع رسول الله في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر، وإن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما في القوم أحد صائم إلا رسول الله وعبد الله بن رواحة) وفي رواية: أن ذلك كان في شهر رمضان. لما صبر الصائمون لله في الحر على شدة العطش والظمأ أفرد لهم بابا من أبواب الجنة، وهو باب الريان، من دخله شرب ومن شرب لم يظمأ بعدها أبدا، فإذا دخلوا أغلق على من بعدهم، فلا يدخل منه غيرهم.

وقد تحدث أحيانا حوادث غير معتادة تذكر بالنار، كالصواعق والريح الحارة المحرقة للزرع قال الله تعالى: (ويرسل الصواعق فيصيب بها

من يشاء) وقد روي أن الصواعق قطعة من نار، تطير من في الملك الذي يزجر السحاب عند اشتداد غضبه، وقال الله تعالى: (فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) والإعصار: الريح الشديدة العاصف التي فيها نار. والصر: الريح الشديدة البرد، وقد عذب الله تعالى قوم شعيب بالظلة. وروي أنه أصابهم حرّ أخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت إلى الصحراء، فأظلتهم سحابة فوجدوا لها بردا فاجتمعوا تحتها كلهم، فأمطرت عليهم نارا فأحرقوا كلهم. فكل هذه العقوبات بسبب المعاصي، وهي من مقدمات عقوبات جهنم وأنموذجها، ومما يدل على الجنة والنار أيضا ما يعجله الله في الدنيا لأهل طاعته وأهل معصيته، فإن الله تعالى يعجل لأوليائه وأهل طاعته من نفحات نعيم الجنة وروحها ما يجدونه ويشهدونه بقلوبهم مما لا يحيط به عبارة، ولا تحصره إشارة حتى قال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه فإنهم في عيش طيب. قال أبوسليمان: أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم. وقال بعضهم: الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين. قال الله تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة) قال الحسن: نرزقه طاعة يجد لذتها في قلبه. أهل التقوى في نعيم حيث كانوا في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

العيش عيشهم ما الناس إلا

وأما أهل المعاصي والإعراض عن الله فإن الله يعجل لهم في الدنيا من أنموذج عقوبات جهنم ما يعرف أيضا بالتجربة والذوق، فلا تسأل عما هم فيه من ضيق الصدر وحرجه ونكده، وعما يعجل لهم من عقوبات المعاصي في الدنيا ولو بعد حين من زمن العصيان، وهذا من نفحات الجحيم المعجلة لهم ثم ينتقلون بعد هذه الدار إلى أشد من ذلك وأضيق، ولذلك يضيق على أحدهم قبره حتى تختلف فيه

أضلاعه، ويفتح له باب إلى النار فيأتيه من سمومها قال الله تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا) وورد في الحديث المرفوع تفسيرها بعذاب القبر، ثم بعد ذلك يصيرون إلى جهنم وضيقها، قال الله تعالى: (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعَووا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا).

ومما يدل أيضا في الدنيا على وجود النار الحمى التي تصيب بني آدم، وهي نار باطنة فمنها نفحة من نفحات سموم جهنم، ومنها نفحة من نفحات زمهريرها، وقد روي في حديث خرجه الإمام أحمد وابن ماجه: (أنها حظ المؤمن من النار) والمدار أن الحمى تكفر ذنوب المؤمن وتنقيه منها كما ينقي الكير خبث الحديد، وإذا طهر المؤمن من ذنوبه في الدنيا لم يجد حر النار إذا مر عليها يوم القيامة، لأن وجدان الناس لحرها عند المرور عليها بحسب ذنوبهم، فمن طهر من الذنوب ونقي منها في الدنيا جاز على الصراط كالبرق الخاطف والريح، ولم يجد شيئا من حر النار، ولم يحس بها. فتقول النار للمؤمن: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي، وفي حديث جابر المرفوع في مسند الإمام أحمد: (إنهم يدخلونها فتكون عليهم بردا وسلاما، كما كانت على إبراهيم حتى أن للنار ضجيجا من بردهم) ومن أعظم ما يذكر بنار جهنم النار التي في الدنيا قال الله تعالى: (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) يعني: أن نار الدنيا جعلها الله تذكرة تذكر بنار جهنم، مر ابن مسعود بالحدادين وقد أخرجوا حديدا من النار فوقف ينظر إليه ويبكي. وروي عنه أنه مر على الذين ينفخون الكير فسقط. وكان أويس يقف على الحدادين فينظر إليهم كيف ينفخون الكير ويسمع صوت النار فيصرخ ثم يسقط، وكذلك الربيع بن خيثم وكان كثير من السلف يخرجون إلى الحدادين ينظرون إلى ما يصنعون بالحديد فيبكون ويتعوذون بالله من النار، ورأى عطاء السَّلِيمي امرأة قد سجرت تنورها فغشي عليه. قال الحسن: كان عمر ربما توقد له

النار ثم يدني يده منها ثم يقول: يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر؟.

كان الأخنف بن قيس يجيء إلى المصباح فيضع أصبعيه فيه ويقول حس، ثم يعاتب نفسه على ذنوبه، أجّج بعض العباد نارا بين يديه، وعاتب نفسه فلم يزل يعاتبها حتى مات. نار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، وغسلت بالبحر مرتين حتى أشرقت وخف حرها، ولولا ذلك ما انتفع بها أهل الدنيا، وهي تدعو إلى الله أن لا يعيدها إليها.

قال بعض السلف: لو أخرج أهل النار منها إلى نار الدنيا لقالوا فيها ألفَي عام، يعني أنهم كانوا ينامون فيها، ويرونها بردا. كان عمر يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد. كان ابن عمر وغيره من السلف إذا شربوا ماء باردا بكوا، وذكروا أمنية أهل النار، وأنهم يشتهون الماء البارد، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، ويقولون لأهل الجنة: (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) فيقولون لهم: (إن الله حرمهما على الكافرين) والمصيبة العظمى حين تطبق النار على أهلها ويأسون من الفرج، وهو الفزع الأكبر الذي يأمنه أهل الجنة: (الذين سبقت لهم منا الحسنى).

لو أبصرت عيناك سيقوا إلى النار
شرابهم المهل إذ خالفوا الرسل
تقول أخراهم في لجج المهل
قد كنتموا لكن من النيران
وجيء بالنيران شرارها من حولها
وقيل للنيران أن وقيل للخزان أن

المجلس الثالث
في ذكر فصل الشتاء

خرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي قال: (الشتاء ربيع المؤمن) وخرجه البيهقي وغيره وزاد فيه: (طال ليله فقامه وقصر نهاره فصامه). إنما كان الشتاء

ربيع المؤمن لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، وينزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه، كما ترتع البهائم في مرعى الربيع، فتسمن وتصلح أجسادها، فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء، بما يسر الله فيه من الطاعات، فإن المؤمن يقدر في الشتاء على صيام نهاره من غير مشقة، ولا كلفة تحصل له من جوع ولا عطش، فإن نهاره قصير بارد، فلا يحس فيه بمشقة الصيام. وفي المسند والترمذي عن النبي قال: (الصيام في الشتاء الغنيمة الباردة) وكان أبوهريرة رضي الله عنه يقول: أدلكم على الغنيمة الباردة ؟ قالوا: بلى! فيقول: الصيام في الشتاء. ومعنى كونها غنيمة باردة أنها غنيمة حصلت بغير قتال ولا تعب ولا مشقة، فصاحبها يحوز هذه الغنيمة عفوا صفوا بغير كلفة، وأما قيام ليل الشتاء فلطوله يمكن أن تأخذ النفس حظها من النوم، ثم تقوم بعد ذلك إلى الصلاة، فيقرأ المصلي ورده كله من القرآن، وقد أخذت نفسه حظها من النوم، فيجتمع له فيه نومه المحتاج إليه مع إدراك ورده من القرآن، فيكمل له مصلحة دينه، وراحة بدنه.

ومن كلام يحيى بن معاذ: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والإسلام نقي فلا تدنسه بآثامك. بخلاف ليل الصيف، فإنه لقصره وحره يغلب النوم فيه، فلا تكاد تأخذ النفس حظها بدون نومه كله، فيحتاج القيام فيه إلى مجاهدة، وقد لا يتمكن فيه لقصره من الفراغ من ورده من القرآن. ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرحبا بالشتاء تنزل فيه البركة، ويطول فيه الليل للقيام، ويقصر فيه النهار للصيام. وروي عنه مرفوعا ولا يصح رفعه. وعن الحسن قال: نعم زمان المؤمن الشتاء ليله طويل يقومه، ونهاره قصير يصومه. وعن عبيد بن عمير أنه كان إذا جاء الشتاء قال: يا أهل القرآن! طال ليلكم لقراءتكم فاقرأوا، وقصر النهار لصيامكم فصوموا، قيام ليل الشتاء يعدل صيام نهار الصيف.

ولهذا بكى معاذ عند موته وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. وقال معضد: لولا ثلاث ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ولذاذة التهجد بكتاب الله ما بليت أن أكون يعسوبا.

القيام في ليل الشتاء يشقّ على النفوس من وجهين: أحدهما من جهة تألم النفس بالقيام من الفراش في شدة البرد. قال داود بن رشيد: قام بعض إخواني إلى ورده بالليل في ليلة شديدة البرد، فكان عليه خلقان فضربه البرد، فبكى فهتف به هاتف: أقمناك وأنمناهم وتبكي علينا!. خرجه أبونعيم.

والثاني: بما يحصل بإسباغ الوضوء في شدة البرد من التألم، وإسباغ الوضوء في شدة البرد من أفضل الأعمال. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط). وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي أنه رأى ربه عز وجل يعني في المنام فقال له: يا محمد! فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال: في الدرجات والكفارات ؟ قال: والكفارات إسباغ الوضوء في الكريهات، ونقل الأقدام إلى الجمعات) وفي رواية: (الجماعات) وانتظار الصلاة بعد الصلاة، من فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، والدرجات: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام) وذكر الحديث خرجه الإمام أحمد والترمذي. وفي بعض الروايات: (إسباغ الوضوء في السبرات) والسبرة: شدة البرد.

فإسباغ الوضوء في شدة البرد من أعلى خصال الإيمان. روى ابن سعد بإسناده: أن عمر رضي الله عنه وصى ابنه عند موته فقال له: يا بني عليك بخصال الإيمان. قال: وما هي ؟ قال: الصوم في

شدة الحر أيام الصيف، وقتل الأعداء بالسيف، والصبر على المصيبة، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، وتعجيل الصلاة في يوم الغيم، وترك ردغة الخبال. فقال: ما ردغة الخبال ؟ قال: شرب الخمر. وروى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: ستّ من كنّ فيه فقد استكمل الإيمان: قتال أعداء الله بالسيف، والصيام في الصيف، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، والتبكير بالصلاة في يوم الغيم، وترك الجدال والمراء وأنت تعلم أنك صادق، والصبر على المصيبة. وقد روي هذا مرفوعا خرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له بإسناد فيه ضعف. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ستّ من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان: ضرب أعداء الله بالسيف، وابتدار الصلاة في اليوم الدجن، وإسباغ الوضوء عند المكاره، وصيام الحر، وصبر عند المصائب، وترك المراء وأنت صادق) وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: قال موسى عليه السلام: يا رب! من هم أهلك الذين هم أهلك تظلهم في ظل عرشك ؟ قال: هم البرية أيديهم، الطاهرة قلوبهم، الذين يتحابون لجلالي، الذين إذا ذُكرتُ ذكروا بي، وإذا ذُكروا ذُكرتُ بذكرهم، الذين يسبغون الوضوء في المكاره، وينيبون إلى ذكري كما تنيب النسور إلى أوكارها، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حرب.

وقد روي عن داود بن رشيد قال: قام رجل ليلة باردة ليتوضأ للصلاة فأصاب الماءَ باردا فبكى، فنودي: أما ترضى أنا أنمناهم وأقمناك حتى تبكي علينا!. خرجه ابن السمعاني.

معالجة الوضوء في جوف الليل للتهجد موجب لرضا الرب، ومباهات الملائكة، ففي شدة البرد يتأكد ذلك. ففي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي قال: (رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل فيعالج

نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الرب عز وجل للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ما سألني عبدي هذا فهو له). وفي حديث عطية عن أبي سعيد عن النبيوز : (إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر: رجل قام من جوف الليل فأحسن الطهور ثم صلى، ورجل نام وهو ساجد، ورجل في كتيبة منهزمة على فرس جواد لو شاء أن يذهب لذهب).

قال أبوسليمان الداراني: كنت ليلة باردة في المحراب فأقلقتني البرد فخبأت إحدى يدي من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة، فغلبتني عيني فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها. قال: فآليت على نفسي أن لا أعود إلا ويداي خارجتان، حرا كان أو بردا.

قال مالك رحمه الله: كان صفوان بن سليم يصلي يعني بالليل في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح، ثم يقول: هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم، وإنه لترم رجلاه حتى يعود مثل السقط من قيام الليل، ثم يظهر فيها عروق خضر، وكان صفوان وغيره من العباد يصلون في الشتاء بالليل في ثوب واحد، ليمنعهم البرد من النوم. ومنهم من كان إذا نعس ألقى نفسه في الماء ويقول: هذا أهون من صديد جهنم. كان عطاء الخرساني ينادي أصحابه بالليل يا فلان! ويا فلان! ويا فلان! قوموا فتوضئوا وصلوا، فقيام هذا الليل وصيام هذا النهار أهون من شرب الصديد، ومقطعات الحديد غدا في النار. الوحا الوحا! النجاء النجاء!.

كان قوم من العباد يبيتون في مسجد، وكانوا يتهجدون في الليل، فاستيقظ واحد منهم ليلة فوجد إخوانه نياما، فسمع هاتفا يهتف من جانب المسجد:

أيا عجبا للناس من مطاعم غمض بعدها
وطول قيام الليل وأهون من نار تفور

وفي الحديث الصحيح أن ابن عمر رأى في منامه كأن آتيا، فانطلق به إلى النار حتى رآها، ورأى فيها رجالا يعرفهم معلقين بالسلاسل، فأتاه ملك فقال له: لن تراع لست من أهلها، فقص ذلك على أخته حفصة، فقصته حفصة على رسول الله ا– فقال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل). فكان ابن عمر لا ينام من الليل إلا قليلا، قال الحسن: أفضل العبادة الصلاة في جوف الليل. وقال: هو أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل. وقال: ما وجدت في العبادة أشدّ منها. ورؤي سلمة بن كهيل في المنام فقال: وجدت أفضل الأعمال قيام الليل، ما عندهم أشرف منه. ورأى بعض السلف خياما ضربت فسأل لمن هي؟ فقيل للمتهجدين بالقرآن، فكان بعد ذلك لا ينام.

فما لي بعيد الدار وقد نصبت السائرين
علامة طردي طول وغيري يرى أن

ومن الصالحين من كان يلطف به في الحر والبرد، كما دعا النبي ا– لعلي:(أن يذهب الله عنه الحر والبرد)، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يجد حرا ولا بردا. وكان بعض التابعين يشتد عليه الطهور في الشتاء، فدعا الله عز وجل، فكان يؤتى بالماء في الشتاء وله بخار من حره. رأى أبوسليمان في طريق الحج في شدة البرد شيخا عليه خلقان وهو يرشح عرقا، فعجب منه وسأله عن حاله فقال: إنما الحر والبرد خلقان لله عز وجل، فإن أمرهما أن يغشياني أصاباني، وإن أمرهما أن يتركاني تركاني، وقال: أنا في هذه البرية من ثلاثين سنة يلبسني في البرد، فَيحًا من محبته، ويلبسني في الصيف بردا من محبته، وقيل لآخر وعليه خرقتان في يوم برد شديد: لواستترت في موضع يكنك من البرد فأنشد:

ومحسنِ ظني أنني وهل أحد في كنه يجد

وأما من يجد البرد وهم عامة الخلق فإنه يشرع لهم دفع أذاه بما يدفعه لباس وغيره، وقد امتن الله على عباده بأن خلق لهم من أصواف بهيمة الأنعام وأوبارها وأشعارها ما فيه دفء لهم قال الله تعالى: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) وقال الله تعالى: (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وروى ابن المبارك عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا حضر الشتاء تعاهدهم وكتب لهم بالوصية: إن الشتاء قد حضر وهو عدو فتأهبوا له أهبته من الصوف والخفاف والجوارب، واتخذوا الصوف شعارا ودثارا، فإن البرد عدو سريع دخوله، بعيد خروجه، وإنما كان يكتب عمر إلى أهل الشام لما فتحت في زمنه، فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن له عهد بالبرد أن يتأذى ببرد الشام، وذلك من تمام نصيحته، وحسن نظره وشفقته وحياطته لرعيته رضي الله عنه، وروي عن كعب قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أن تأهب لعدو قد أظلك. قال: يا رب! من عدوي وليس بحضرتي عدو؟ قال: بلى! الشتاء. وليس المأمور به أن يتقي البرد حتى لا يصيبه منه شيء بالكلية، فإن ذلك يضر أيضا. وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد بالكلية حتى لا يحس بهما بدنه، فتلف باطنه، وتعجل موته، فإن الله بحكمته جعل الحر والبرد في الدنيا لمصالح عباده، فالحر لتحلل الأخلاط، والبرد لجمودها، فمتى لم يصب الأبدان شيء من الحر والبرد تعجل فسادها، ولكن المأمور به اتقاء ما يؤذي البدن من ذلك، فإن الحر المؤذي والبرد المؤذي المعدودان من جملة أعداء ابن آدم.

قيل لأبي حازم الزاهد: إنك لتشدد يعني في العبادة ؟ فقال: وكيف لا أشدد وقد ترصد لي أربعة عشر عدوا!. قيل له: لك خاصة ؟ قال بل لجميع من

يعقل. قيل له: وما هذه الأعداء؟ قال: أما أربعة: فمؤمن يحسدني، ومنافق يبغضني، وكافر يقاتلني، وشيطان يغويني ويضلني. وأما العشرة: فالجوع والعطش، والحر والبرد، والعري والمرض، والفاقة والهرم، والموت والنار، ولا أطيقهن إلا بسلاح تام، ولا أجد لهن سلاحا أفضل من التقوى. فعد الحر والبرد من جملة أعدائه.

وقال الأصمعي: كانت العرب تسمي الشتاء: الفاضح، فقيل لامرأة منهم أيما أشد عليكم القيظ أم القرّ ؟ قالت: سبحان الله! من جعل البؤس كالأذى!. فجعلت الشتاء بؤسا، والقيظ أذى. قال بعض السلف: إن الله وصف الجنة بصفة الصيف لا بصفة الشتاء فقال: (في سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة) وقد قال الله تعالى في صفة أهل الجنة: (متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) فنفى عنهم شدة الحر والبرد. قال قتادة: علم الله أن شدة الحر تؤذي، وشدة البرد تؤذي، فوقاهم أذاهما جميعا. قال أبوعمرو بن العلاء: إني لأبغض الشتاء لنقص الفروض، وذهاب الحقوق، وزيادة الكلفة على الفقراء، وقد روي في حديث مرفوع: (إن الملائكة تفرح بذهاب الشتاء) لما يدخل فيه على فقراء المؤمنين من الشدة، ولكن لا يصح إسناده. وروي أيضا مرفوعا: (خير صيفكم أشده حرا، وخير شتائكم أشده بردا، وإن الملائكة لتبكي في الشتاء رحمة لبني آدم) وإسناده أيضا باطل.

وقال بعض السلف: البرد عدو الدين يشير. إلى أنه يفتر عن كثير من الأعمال ويثبط عنها، فتكسل النفوس بذلك. وقال بعضهم: خلقت القلوب من طين فهي تلين في الشتاء كما يلين الطين فيه. قال الحسن: الشتاء ذكر فيه اللقاح، والصيف أنثى فيه النتاج. يشير إلى أن الصيف تنتج فيه المواشي والشجر، والصيف عند العرب هو الربيع وأما الذي تسميه الناس: الصيف فالعرب يسمونه القيظ، ففي الشتاء تفور الحرارة إلى باطن الشجر،

فتنعقد مواد الثمر فتظهر في الربيع مباديها، فتزهر الشجر ثم تورق، ثم إذا ظهرت الثمار قوي حرّ الشمس لإنضاجها.

الإيثار في الشتاء للفقراء بما يدفع عنهم البرد له فضل عظيم. خرج صفوان بن سليم في ليلة باردة بالمدينة من المسجد فرأى رجلا عاريا، فنزع ثوبه وكساه إياه، فرأى بعض أهل الشام في منامه أن صفوان بن سليم دخل الجنة بقميص كساه، فقدم المدينة فقال: دلوني على صفوان فأتاه فقص عليه ما رأى، رأى مسعر أعرابيا يتشرق في الشمس وهو يقول:

جاء الشتاء وليس ولقد يخص بمثل ذاك
قد قطع الناس وكأنني بفناء مكة

فنزع مسعر جبته فألبسه إياها.

رفع إلى بعض الوزراء الصالحين أن امرأة معها أربعة أطفال أيتام، وهم عراة جياع، فأمر رجلا أن يمضي إليهم، وحمل معه ما يصلحهم من كسوة وطعام، ثم نزع ثيابه وحلف: لا لبستها ولا دفئت حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم، فمضى وعاد فأخبره: أنهم اكتسوا وشبعوا وهو يرعد من البرد، فلبس حينئذ ثيابه. خرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعا: (من أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، ومن سقاه على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كساه على عري كساه الله من خضر الجنة) وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال: (يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأجوع ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، فمن كسا لله عز وجل كساه الله، ومن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن عفا لله أعفاه الله)

ومن فضائل الشتاء: أنه يذكر بزمهرير جهنم ويوجب الاستعاذة منها، وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: إذا كان يوم شديد البرد. فإذا قال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم! اللهم أجرني من زمهرير جهنم. قال الله

تعالى لجهنم: إن عبدا من عبادي استجار بي من زمهريرك، وإني أشهدك أني قد أجرته. قالوا: ما زمهرير جهنم؟ قال: بيت يلقى فيه الكفار فيتميز من شدة البرد). قام زبيد اليامي ذات ليلة للتهجد فعمد إلى مطهرة له كان يتوضأ منها، فغمس يده في المطهرة فوجد الماء باردا شديدا كاد أن يجمد من شدة برده، فذكر الزمهرير ويده في المطهرة، فلم يخرجها حتى أصبح، فجاءته جاريته وهو على تلك الحال فقالت: ما شأنك يا سيدي لم لا تصلي الليلة كما كنت تصلي وأنت قاعد هنا على هذه الحالة ؟ فقال: ويحك إني أدخلت يدي في هذه المطهرة، فاشتد عليّ برد الماء، فذكرت به الزمهرير، فو الله ما شعرت بشدة برده حتى وقفت عليّ، فانظري لا تحدثي بهذا أحدا ما دمت حيا. فما علم بذلك أحد حتى مات رحمه الله. في الحديث الصحيح عن النبي : (إن لجهنم نفسين نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها، وأشد ما تجدون من الحر من سمومها) وروي عن ابن عباس قال: يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة، يصدع العظام بردها، فيسألون الحر. وعن مجاهد قال: يهربون إلى الزمهرير، فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض. وعن كعب قال: إن في جهنم بردا هو الزمهرير، يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحرّ جهنم. وعن عبد الملك بن عمير قال بلغني: أن أهل النار سألوا خازنها أن يخرجهم إلى جانبها فأخرجوا، فقتلهم البرد والزمهرير حتى رجعوا إليها فدخلوها مما وجدوه من البرد، وقد قال الله عز وجل: (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميما وغسّاقا * جزاء وفاقا) وقال الله تعالى: (هذا فليذوقوه حميم وغسّاق). قال ابن عباس: الغسّاق: الزمهرير البارد الذي يحرق من برده، وقال مجاهد: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده، وقيل: إن الغسّاق: البارد المنتن، أجارنا الله تعالى من جهنم بفضله وكرمه.

يا من تتلى عليه أوصاف جهنم، ويشاهد تنفسها كل عام حتى يحس به ويتألم، وهو مصر على ما يقتضي دخولها مع أنه يعلم، ستعلم إذا جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام من يندم، ألك صبر على سعيرها وزمهريرها ؟ قل وتكلم، ما كان صلاحك يرجى والله أعلم.

كم يكون الشتاء ثم وربيع يمضي ويأتي
وارتحال من وسيف الردى عليك
يا قليل المقام في إلى كم يغرك
يا طالب الزائل قلبك بالزائل
عجبا لامرىء يذل يا ويكفيه كل يوم

مجلس في ذكر التوبة والحث عليها قبل الموت وختم العمر بها والتوبة وظيفة العمر وهي خاتمة مجالس الكتاب

خرج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر عن النبي قال: (إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) وقال الترمذي حديث حسن. دل هذا الحديث على قبول توبة الله عز وجل لعبده ما دامت روحه في جسده لم تبلغ الحلقوم والتراقي، وقد دل القرآن على مثل ذلك أيضا قال الله عز وجل: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) وعمل السوء إذا انفرد يدخل فيه جميع السيئات صغيرها وكبيرها، والمراد بالجهالة الإقدام على السوء، وإن علم صاحبه أنه سوء، فإن كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من أطاعه فهو عالم. وبيانه من وجهين: أحدهما: أن من كان عالما بالله تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله فإنه يهابه ويخشاه، فلا يقع منه مع استحضار ذلك عصيانه كما قال بعضهم: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه. وقال آخر: كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا. والثاني: أن من آثر المعصية على الطاعة، فإنما حمله على ذلك جهله وظنه أنها

تنفعه عاجلا باستعجال لذتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلص من سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره، وهذا جهل محض. فإنه تعجل الإثم والخزي، ويفوته عز التقوى وثوابها، ولذة الطاعة، وقد يتمكن من التوبة بعد ذلك، وقد يعاجله الموت بغتة، فهو كجائع أكل طعاما مسموما لدفع جوعه الحاضر، ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب الذرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهل، وقد قال تعالى في حق الذين يؤثرون السحر: (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) والمراد أنهم آثروا السحر على التقوى، والإيمان لما رجوا فيه من منافع الدنيا المعجلة مع علمهم أنهم يفوتهم بذلك ثواب الآخرة، وهذا جهل منهم، فإنهم لو علموا لآثروا الإيمان والتقوى على ما عداهما، فكانوا يحرزون أجر الآخرة ويأمنون عقابها، ويتعجلون عز التقوى في الدنيا، وربما وصلوا إلى ما يأملونه في الدنيا، أو إلى خير منه وأنفع. فإن أكثر ما يطلب بالسحر قضاء حوائج محرمة، أو مكروهة عند الله عز وجل، والمؤمن المتقي يعوضه الله في الدنيا خيرا مما يطلبه الساحر ويؤثره مع تعجيله، عز التقوى وشرفها وثواب الآخرة وعلو درجاتها. فتبين بهذا أن إيثار المعصية على الطاعة إنما يحمل عليه الجهل، ولذلك كان كل من عصى الله جاهلا وكل من أطاعه عالما، وكفى بخشية الله علما وبالاغترار به جهلا، وأما التوبة من قريب: فالجمهور على أن المراد بها التوبة قبل الموت، فالعمر كله قريب، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد، كما قيل:

فهم جيرة الأحياء أما مزارهم ... فدان وأما الملتقى فبعيد

فالحي قريب والميت بعيد من الدنيا على قربه منها، فإن جسمه في الأرض يبلى، وروحه عند

الله تنعم أو تعذب، ولقاؤه لا يرجى في الدنيا.

مقيم إلى أن يبعث لقاؤك لا يرجى وأنت
تزيد بلى في كل وتنسى كما تبلى

وهذان البيتان سمعهما داود الطائي رحمه الله من امرأة في مقبرة تندب بهما ميتا لها فوقعتا من قلبه موقعا، فاستيقظ بهما ورجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة، فانقطع إلى العبادة إلى أن مات رحمه الله، فمن تاب قبل أن يغرغر فقد تاب من قريب فتقبل توبته. وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: (يتوبون من قريب) قال: قبل المرض والموت، وهذا إشارة إلى أفضل أوقات التوبة وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به، حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح. ولذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن، وأيضا فالتوبة في الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة ورجاء البقاء، والتوبة في المرض عند حضور أمارات الموت يشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه ولذة دنياه. فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ وترك ما كان عليه، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي، فيتركها خوفا من الله عز وجل، ورجاء لثوابه، وإيثارا لطاعته على معصيته.

دخل قوم على بشر الحافي وهو مريض فقالوا له: على ماذا عزمت ؟ فقال: عزمت أني عوفيت تبت. فقال له رجل منهم: فهلا تبت الساعة؟ فقال: يا أخي أما علمت أن الملوك لا تقبل الأمان ممن في رجليه القيد، وفي رقبته الغل، إنما يقبل الأمان ممن هو راكب الفرس، والسيف مجرد بيده، فبكى القوم جميعا. ومعنى هذا أن التائب في صحته بمنزلة من هو راكب على متن جواده وبيده سيف مشهور، فهو يقدر على الكر والفر، والقتال، وعلى الهرب من الملك

وعصيانه، فإذا جاء على هذه الحال إلى بين يدي الملك ذليلا له طالبا لأمانه صار بذلك من خواص الملك وأحبابه، لأنه جاءه طائعا مختارا له، راغبا في قربه وخدمته، وأما من هو في أسر الملك وفي رجله قيد، وفي رقبته غل، فإنه إذا طلب الأمان من الملك فإنما طلبه خوفا على نفسه من الهلاك، وقد لا يكون محبا للملك، ولا مؤثرا لرضاه. فهذا مثل من لا يتوب إلا في مرضه عند موته، والأول بمنزلة من يتوب في صحته وقوته وشبيبته، لكن ملك الملوك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وكل خلقه أسير في قبضته، لا يعجزه هارب، ولا يفوته ذاهب، ومع هذا فكل من طلب الأمان من عذابه من عباده أمنه على أي حال كان، إذا علم منه الصدق في طلبه.

الأمان الأمان وذنوبي إذا عددت
أوبقتني وأوثقتني فترى لي إلى

وقوله عز وجل: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) فسوى بين من تاب عند الموت ومن مات من غير توبة، والمراد بالتوبة عند الموت التوبة عند انكشاف الغطاء، ومعاينة المحتضر أمور الآخرة، ومشاهدة الملائكة، فإن الإيمان والتوبة وسائر الأعمال إنما تنفع بالغيب، فإذا كشف الغطاء وصار الغيب شهادة لم ينفع الإيمان ولا التوبة في تلك الحال. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي قال: لا يزال العبد في مهل من التوبة ما لم يأته ملك الموت بقبض روحه، فإذا نزل ملك الموت فلا توبة حينئذ.

وبإسناده عن الثوري قال: قال ابن عمر: التوبة مبسوطة ما لم ينزل سلطان الموت. وعن الحسن قال: التوبة معروضة لابن آدم ما لم يأخذ الموت بكظمه. وعن بكر المزني قال: لا تزال التوبة للعبد مبسوطة ما لم تأته الرسل، فإذا عاينهم انقطعت المعرفة. وعن أبي مجلز قال: لا يزال العبد في

توبة ما لم يعاين الملائكة. وروي أيضا في كتاب الموت بإسناده عن أبي موسى الأشعري قال: إذا عاين الميت الملك ذهبت المعرفة. وعن مجاهد نحوهز

وعن حصين قال: بلغني أن ملك الموت إذا غمز وريد الإنسان حينئذ يشخص بصره، ويذهل عن الناس. وخرج ابن ماجه حديث أبي موسى مرفوعا قال: سألت النبي : متى تنقطع معرفة العبد من الناس ؟ قال: (إذا عاين). وفي إسناده مقال والموقوف أشبه. وقد قيل: إنه إنما منع من التوبة حينئذ لأنه إذا انقطعت معرفته، وذهل عقله لم يتصور منه ندم، ولا عزم، فإن الندم والعزم إنما يصح مع حضور العقل، وهذا ملازم لمعاينة الملائكة، كما دلت عليه الأخبار.

وقوله ا – في حديث ابن عمر: (ما لم يغرغر) يعني إذا لم تبلغ روحه عند خروجها منه إلى حلقه، فشبه ترددها في حلق المحتضر بما يتغرغر به الإنسان من الماء وغيره، ويردده في حلقه، وإلى ذلك الإشارة في القرآن بقوله عز وجل: (فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) وبقوله عز وجل: (كلا إذا بلغت التراقي) وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: أشدّ ما يكون الموت على العبد إذا بلغت الروح التراقي. قال: فعند ذلك يضطرب ويعلو نفسه. ثم بكى الحسن رحمه الله تعالى.

عش ما بدا لك ... في ظل شاهقة
يسعى عليك بما ... ت لدى الرواح وفي
فإذا النفوس ... في ضيق حشرجة
فهناك تعلم موقنا ... ما كنت إلا في غرور

واعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة فإنه لا يقطع أمله في الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدنيا،

فندم حينئذ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحا، فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذر الله في كتابه عباده من ذلك ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح قال الله تعالى: (أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) سمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه ويقول: (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله). وقال آخر عند احتضاره: سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي. وقال آخر عند موته: لا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرتني. وقال الله تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها) وقال الله تعالى: (وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وقال الله تعالى: (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) وفسره طائفة من السلف منهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله: بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها. قال الحسن: اتق الله يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت، وحسرة الفوت. وقال ابن السماك: احذر السكرة والحسرة، أن يفجأك الموت وأنت على الغرة، فلا يصف واصف قدر ما تلقى، ولا قدر ما ترى. قال الفضيل: يقول الله عز وجل: ابن آدم! إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرني لا أصرعك بين معاصي. وفي بعض الإسرائيليات: ابن آدم احذر لا يأخذك الله على ذنب فتلقاه لا حجة لك.

مات كثير من المصرِّين على المعاصي على أقبح أحوالهم وهم مباشرون للمعاصي فكان ذلك خزيا لهم في الدنيا مع ما صاروا إليه من عذاب

الآخرة، وكثيرا ما يقع هذا للمصرِّين على الخمر المدمنين لشربها. كما قال القائل:

أيا من أيها بأن تفجاك في
فتضحى عبرة وتلقى الله من

سكر بعض المتقدمين ليلة فعاتبته زوجته على ترك الصلاة، فحلف بطلاقها ثلاثا لا يصلي ثلاثة أيام، فاشتدّ عليه فراق زوجته، فاستمر على ترك الصلاة مدة الأيام الثلاث، فمات فيها على حاله، وهو مصر على الخمر تارك الصلاة.

كان بعض المصرِّين على الخمر يكنى أبا عمرو، فنام ليلة وهو سكران، فرأى في منامه قائلا يقول له:

جدّ بك الأمر وأنت معكوف
تشرب صهباء سال بك السيل

فاستيقظ منزعجا وأخبر من عنده بما رأى ثم غلبه سكره فنام، فلما كان وقت الصبح مات فجأة. قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها لم يفق إلا في عسكر الموتى نادما مع الخاسرين. وفي حديث خرجه الترمذي مرفوعا: (ما من أحد يموت إلا ندم. قالوا: وما ندامته ؟ قال: إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون استعتب) إذا ندم المحسن عند الموت فكيف يكون حال المسيء!، غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يفرطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي. قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير يعني أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها، ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

لو قيل لقوم ما حياة يوم ليتوبوا
ويحك يا نفس ألا ينفع قبل أن تزل
مضى الزمان في فاستدركي ما قد

الناس في التوبة على أقسام: فمنهم: من لا يوفق لتوبة نصوح، بل ييسر له عمل السيئات من أول عمره إلى آخره حتى يموت مصرا عليها، وهذه حالة الأشقياء، وأقبح من ذلك: من يسر له في أول عمره عمل الطاعات ثم ختم له بعمل سيء حتى مات عليه، كما في الحديث الصحيح: (إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) وفي الحديث الذي خرجه أهل السنن: (إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين عاما ثم يحضره الموت فيجور في وصيته فيدخل النار) ما أصعب الانتقال من البصر إلى العمى، وأصعب منه الضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى.

كم من وجوه خاشعة وقع على قصص أعمالها عاملة ناصبة تصلى نارا حامية! كم من شارف مركبه ساحل النجاة، فلما هم أن يرقى لعب به موج الهوى، فغرق الخلق كلهم تحت هذا الخطر!. قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، قال بعضهم: ما العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا، وأنشد:

يا قلبي إلام ... بلقا الأحباب وقد
أرسلتك في ... لتعود فضعت
سلم واصبر ... كم قبلك مثلك
ما أحسن ما ... آمالك منهم

وقسم يفني عمره في الغفلة والبطالة ثم يوفق لعمل صالح فيموت عليه، وهذه حالة من عمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

الأعمال بالخواتيم

الأعمال بالخواتيم: إذا أراد الله بعبد غسله. قالوا: وما غسله ؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه. وهؤلاء:

منهم: من يوقظ قبل موته بمدة يتمكن فيها

من التزود بعمل صالح يختم به عمره. ومنهم: من يوقظ عند حضور الموت فيوفق لتوبة نصوح يموت عليها. قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أراد الله بعبد خيرا قيض له ملكا قبل موته بعام، فيسدده وييسره حتى يموت وهو خير ما كان، ويقول الناس: مات فلان خير ما كان. وخرجه البزار عنها مرفوعا: إذا أراد الله بعبد خيرا بعث إليه ملكا من عامه الذي يموت فيه، فيسدده وييسره، فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت فقعد عند رأسه فقال: أيتها النفس المطمئنة! أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فذلك حين يحب لقاء الله ويحب الله لقاءه، وإذا أراد الله بعبد شرًا بعث إليه شيطانا من عامه الذي يموت فيه، فأغواه فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت فقعد عند رأسه فقال: أيتها النفس الخبيثة! اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق في جسده، فذلك حين يبغض لقاء الله، ويبغض الله لقاءه.

وفي الدعاء المأثور: اللهم اجعل خير عملي خاتمته، وخير عمري آخره. وفي المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: من تاب قبل موته عاما تيب عليه، ومن تاب قبل موته شهرا تيب عليه، حتى قال يوما، حتى قال: ساعة، حتى قال: فواقا، قال: قال له إنسان أرأيت إن كان مشركا فأسلم ؟ قال: إنما أحدثكم ما سمعت من رسول الله ا– قال أحدهم: سمعت رسول الله ا– يقول: (إن الله عز وجل يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم. قال الآخر: أنت سمعت هذا من رسول الله ا–؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ا– يقول: إن الله عز وجل يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم. فقال ثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ا–؟ قال نعم قال: وأنا سمعت رسول الله ا– يقول: إن الله عز وجل يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة. قال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ا–؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ا– يقول: إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه) وفيه أيضا

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ا– قال: (إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب عز وجل: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني) ذكر ابن أبي الدنيا بإسناد له أن رجلا من ملوك البصرة كان قد تنسك ثم مال إلى الدنيا والشيطان، فبنى دارا وشيدها وأمر بها ففرشت له ونجدت، واتخذ مأدبة وصنع طعاما ودعا الناس فجعلوا يدخلون فيأكلون ويشربون وينظرون إلى بنائه، ويعجبون منه ويدعون له ويتفرقون، فمكث بذلك أياما حتى فرغ من أمر الناس، ثم جلس في نفر من خاصة إخوانه، فقال: قد ترون سروري بداري هذه، وقد حدثت نفسي أن أتخذ لكل واحد من ولدي مثلها، فأقيموا عندي أياما أستمتع بحديثكم وأشاوركم فيما أريد من هذا البناء لولدي، فأقاموا عنده أياما يلهون ويلعبون ويشاورهم كيف يبني لولده، وكيف يريد أن يصنع، فبينما هم ذات ليلة في لهوهم إذ سمعوا قائلا يقول: من أقاصي الدار:

يا أيها الباني لا تأمنن فإن الموت
على الخلائق إن فالموت حتف لذي
لا تبنينّ ديارا لست وراجع النسك كيما

قال: ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعا شديدا، وراعهم ما سمعوا من ذلك فقال لأصحابه: هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا: نعم. قال: فهل تجدون ما أجد ؟ قالوا: وما تجد ؟ قال: أجد والله مسكة على قلبي ما أراها إلا علة الموت. قالوا: كلا بل البقاء والعافية. قال: فبكى. وقال: أنتم أخلائي وإخواني فما لي عندكم؟ قالوا: مرنا بما أحببت. قال: فأمر بالشراب فأهريق، وبالملاهي فأخرجت، ثم قال: اللهم إني أشهدك ومن حضر من عبادك أني تائب إليك من جميع ذنوبي، نادم على ما فرطت أيام مهلتي، وإياك أسأل إن أقلتني أن تتم عليّ نعمتك بالإنابة إلى طاعتك، وإن أنت قبضتني إليك أن تغفر لي ذنوبي تفضلا منك علي، واشتد به

الأمر فلم يزل يقول: الموت، والله الموت، والله، حتى خرجت روحه. وكان الفقهاء يرون أنه مات على توبته.

وروى الواحدي في كتاب قتلى القرآن: بإسناد له: أن رجلا من أشراف أهل البصرة كان منحدرا إليها في سفينة ومعه جارية له فشرب يوما، وغنته جاريته بعود لها، وكان معهم في السفينة فقير صالح، فقال له: يا فتى تحسن مثل هذا ؟ قال أحسن ما هو أحسن منه، وكان الفقير حسن الصوت فاستفتح وقرأ: (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) فرمى الرجل ما بيده من الشراب في الماء وقال: أشهد أن هذا أحسن مما سمعت فهل غير هذا ؟ قال: نعم فتلا عليه: (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) الآية. فوقعت في قلبه موقعا، ورمى بالشراب في الماء، وكسر العود، ثم قال: يا فتى هل ههنا فرج ؟ قال: نعم (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) الآية. فصاح صيحة عظيمة فنظروا إليه فإذا هو قد مات رحمه الله. وروى ابن أبي الدنيا بإسناد له أن صالحا المري رحمه الله كان يوما في مجلسه يقص على الناس فقرأ عنده قاريء: (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) فذكر صالح: النار وحال العصاة فيها، وصفة سياقهم إليها، وبالغ في ذلك، وبكى الناس، فقام فتى كان حاضرا في مجلسه، وكان مسرفا على نفسه، فقال: أكل هذا في القيامة ؟ فقال صالح: نعم. وما هو أكبر منه، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم، فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المريض المدنف، فصاح الفتى أيا لله، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، وا أسفاه على تفريطي في طاعتك، يا سيداه! وا أسفاه! على

تضييع عمري في دار الدنيا، ثم استقبل القبلة وعاهد الله على توبة نصوح، ودعا الله أن يتقبل منه، وبكى حتى غشي عليه، فحمل من المجلس صريعا، فمكث صالح وأصحابه يعودونه أياما، ثم مات، فحضره خلق كثير، فكان صالح يذكره في مجلسه كثيرا، ويقول: وبأبي قتيل القرآن، وبأبي قتيل الواعظ، والأحزان فرآه رجل في منامه فقال: ما صنعت ؟ قال: عمتني بركة مجلس صالح، فدخلت في سعة رحمة الله: (ورحمتي وسعت كل شيء).

من آلمته سياط المواعظ فصاح فلا جناح، ومن زاد ألمه فمات فدمه مباح.

قضى الله في ولكن دماء العاشقين

وبقي هنا قسم آخر وهو أشرف الأقسام وأرفعها: وهو من يفني عمره في الطاعة ثم ينبه على قرب الأجل ليجد في التزود، ويتهيأ للرحيل بعمل يصلح للقاء يكون خاتمه للعمل. قال ابن عباس: لما نزلت على النبي ﷺ: (إذا جاء نصر الله والفتح) نعيت لرسول الله ﷺ نفسه، فأخذ في أشد ما كان اجتهادا في أمر الآخرة، قالت أم سلمة: (كان النبي ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله ويحمده فذكرت ذلك له. فقال: إني أمرت بذلك، وتلا هذه السورة) كان من عادته ﷺ أن يعتكف في كل عام في رمضان عشرا، ويعرض القرآن على جبريل مرة، فاعتكف في ذلك العام عشرين يوما، وعرض القرآن مرتين، وكان يقول: ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي ثم حج حجة الوداع، وقال للناس: (خذوا عني مناسككم، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا) وطفق يودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع ثم رجع إلى المدينة، فخطب قبل وصوله إليها وقال: (أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، ثم أمر بالتمسك بكتاب الله) ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ. إذا كان سيد المحسنين يؤمر أن يختم عمره بالزيادة

في الإحسان، فكيف يكون حال المسيء.

خذ في جد فقد كم ذا التفريط قد
أقبل فعسى يقبل كم تبني كم تنقض

مرض بعض العابدين فوصف له دواء يشربه فأتي في منامه، فقيل له: أتشرب الدواء والحور العين لك تهيأ ؟ فانتبه فزعا، فصلى في ثلاثة أيام حتى انحنى صلبه ثم مات في اليوم الثالث. كان رجل قد اعتزل وتعبد فرأى في منامه قائلا يقول له: يا فلان! ربك يدعوك فتجهز، واخرج إلى الحج، ولست عائدا، فخرج إلى الحج، فمات في الطريق. رأى بعض الصالحين في منامه قائلا ينشده:

تأهب للذي لا بد من الموت الموكل
أترضى أن تكون لهم زاد وأنت بغير

خرج ابن ماجه من حديث جابر أن النبي ا– خطب فقال في خطبته: (أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا) وفي سنده ضعف، فأمر بالمبادرة قبل الموت، وكل ساعة تمر على ابن آدم فإنه يمكن أن تكون ساعة موته، بل كل نفس كما قيل:

لا تأمن الموت في وإن تمنعت بالحجاب

قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة، وقال بعض الحكماء: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل.

إلى الله تب قبل أخي ولا تأمن مفاجأة
ولا تستصمن عن دعوتك إشفاقا عليك
فقد حذرتك ونادتك إلا أن سمعك
تنوح وتبكي للأحبة ونفسك لا تبكي

قال بعض السلف: أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين. يشير إلى أن المؤمن لا ينبغي أن يصبح ويمسي إلا على توبة، فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت صباحا أو مساء، فمن أصبح أو أمسى على غير توبة فهو على خطر، لأنه يخشى أن يلقى

الله غير تائب، فيحشر في زمرة الظالمين. قال الله تعالى: (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) تأخير التوبة في حال الشباب قبيح، وفي حال المشيب أقبح وأقبح.

نعى لك ظل ونادتك باسم سواك
فكن مستعدا فكل الذي هوآت
ألسن ا نرى سن تفنى وتبقى
يخاف على نفسه فكيف يكن حال من

فإن نزل المرض بالعبد فتأخيره للتوبة حينئذ أقبح من كل قبيح، فإن المرض نذير الموت، وينبغي لمن عاد مريضا أن يذكره التوبة والاستغفار، فلا أحسن من ختام الأعمال بالتوبة والاستغفار، فإن كان العمل سيئا كان كفارة له، وإن كان حسنا كان كالطابع عليه، وفي حديث سيد الاستغفار المخرج في الصحيح: (أن من قاله إذا أصبح وإذا أمسى ثم مات من يومه أو ليلته كان من أهل الجنة) وليكثر في مرضه من ذكر الله عز وجل خصوصا كلمة التوحيد، فإنه من كانت آخر كلامه دخل الجنة. وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ: (أن من قال في مرضه: لا إله إلا الله، والله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن مات من مرضه لم تطعمه النار) خرجه النسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه، وفي رواية للنسائي: (من قالهن في يوم أوفي ليلة أوفي شهر ثم مات في ذلك اليوم أوفي تلك الليلة أوفي ذلك الشهر غفر له ذنبه) ويروى من حديث حذيفة عن النبي ﷺ: من ختم له بقوله لا إله إلا الله دخل الجنة، ومن ختم له بصيام يوم أراد به وجه الله أدخله الله الجنة، ومن ختم له بإطعام مسكين أراد به وجه الله أدخله الله الجنة) كان السلف يرون: أن من مات عقب عمل صالح كصيام رمضان أو عقيب حج أو عمرة أنه يرجى له أن يدخل الجنة، وكانوا مع اجتهادهم في الصحة في الأعمال الصالحة يجددون التوبة

والاستغفار عند الموت ويختمون أعمالهم بالاستغفار وكلمة التوحيد.

لما احتضر العلاء بن زياد بكى فقيل له: ما يبكيك ؟ قال: كنت والله أحب أن أستقبل الموت بتوبة. قالوا: فافعل رحمك الله، فدعا بطهور فتطهر، ثم دعا بثوب جديد فلبسه، ثم استقبل القبلة، فأومأ برأسه مرتين أو نحو ذلك، ثم اضطجع ومات. ولما احتضر عامر بن عبد الله بكى وقال: لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون: اللهم إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي لا إله إلا الله ثم لم يزل يرددها حتى مات رحمه الله.

وقال عمرو بن العاص رحمه الله عند موته: اللهم أمرتنا فعصينا ونهيتنا فركبنا ولا يسعنا إلا عفوك لا إله إلا الله ثم رددها حتى مات، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته: أجلسوني فأجلسوه. فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر، فقالوا: إنك تنظر نظرا شديدا يا أمير المؤمنين! فقال: أتاني حضرة، ما هم بإنس ولا جن، ثم قبض رحمة الله عليه، وسمعوا تاليا يتلو: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين).

يا غافل القلب عن ... عما قليل ستثوى بين
فاذكر محلك من ... وتب إلى الله من لهو
إن الحمام له وقت ... فاذكر مصائب أيام
لا تطمئن إلى ... قد حان للموت يا ذا

التوبة التوبة قبل أن يصل إليكم من الموت النوبة، فيحصل المفرط على الندم والخيبة.

الإنابة الإنابة قبل غلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة; فقد قرب وقت الفاقة، ما أحسن قلق التواب! ما أحلى قدوم الغياب! ما أجمل وقوفهم بالباب!.

أسأت ولم أحسن ... وإني لعبد من مواليه

يؤمل غفرانا فإن فما أحد منه على

من نزل به الشيب فهو بمنزلة الحامل التي تمت شهور حملها فما تنتظر إلا الولادة، كذلك صاحب الشيب لا ينتظر إلا الموت، فقبيح منه الإصرار على الذنب.

أي شيء تريد مني شغفت بي فليس

ما يضر الذنوب لو رحمة بي فقد علاني

ولكن توبة الشاب أحسن وأفضل، في حديث مرفوع خرجه ابن أبي الدنيا: (إن الله يحب الشاب التائب) قال عمير بن هانيء: تقول التوبة للشاب، أهلا ومرحبا، وتقول للشيخ: نقبلك على ما كان منك، الشاب ترك المعصية مع قوة الداعي إليها، والشيخ قد ضعفت شهوته وقل داعيه، فلا يستويان. في بعض الآثار يقول الله عز وجل: أيها الشاب التارك شهوته، المبتذل شبابه لأجلي، أنت عندي كبعض ملائكتي. قال عمر: إن الذين يشترون المعاصي ولا يعلمون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) كم بين حال الذي (قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي) وبين شيخ عنّين يدعى لمثل ذلك فيجيب!. كان عمر يعس بالمدينة فسمع امرأة غاب عنها زوجها تقول:

تطاول هذا الليل وأرقني أن لا خليل

فوالله لولا الله لا لحرك من هذا السرير

ولكن تقوى الله وحفظا لبعلي أن

فقال لها عمر: يرحمك الله! ثم بعث إلى زوجها أمره أن يقدم عليها، وأمر أن لا يغيب أحد عن امرأته أكثر من أربعة أشهر وعشرا. الشيخ قد تركته الذنوب فلا حمد له على تركها، كما قيل:

تاركك الذنب بالفعل والشهوة في

فالحمد للذنب على لا لك في تركك

أما تستحي منا! لما أعرضت لذات الدنيا عنك فلم يبق لك فيها رغبة، وصرت من سقط المتاع لا حاجة لأحد فيك، جئت إلى بابنا فقلت: أنا تائب،

ومع هذا فكل من أوى إلينا آويناه، ومن استجار بنا أجرناه، ومن تاب إلينا أحببناه: أبشر فربما يكون الشيب شافعا لصاحبه من العقوبات. مات شيخ كان مفرطا فرؤي في المنام، فقيل له: ما فعل بك؟ قال: قال لي لولا أنك شيخ لعذبتك.

وقف شيخ بعرفة والناس يضجون بالدعاء، وهو ساكت ثم قبض على لحيته، وقال: يا رب شيخ يرجو رحمتك.

لما أتونا والشيب وقد توالى عليهم
قلنا لسود بيضا فإن الشيوخ قد

كان بعض الصالحين يقول:

إن الملوك إذا في رقهم عتقوهم
وأنت يا خالقي قد شبت في الرق

أيها العاصي ما يقطع من صلاحك الطمع، ما نصبنا اليوم شرك المواعظ إلا لتقع، إذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة قالت لك ملائكة الرحمة: مرحبا وسهلا. فإن قال لك رفقاؤك في المعصية: هلم إلينا. فقل لهم: كلا ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خلّا. يا من سود كتابه بالسيئات قد آن لك بالتوبة أن تمحو، يا سكران القلب بالشهوات أما آن لفؤادك أن يصحو!.

يا نداماي صحا فاطردوا عني الصبا
زجر الوعظ فؤادي وأفاق القلب مني
هزم العزم جنودا فاسدي لا تعجبوا إن
بادروا التوبة من فمناديه ينادينا الوحا

تم كتاب لطائف المعارف بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وكان الفراغ منه في يوم الأربعاء حادي والعشرين من شهر شوال، سنة خمس وستين وثمانمائة.